إقرأ

مرح الوليد

على الجارم

دار المعارف بمصر



مَرَح الوليد

علي الجارم

مرح الوليد

اقرأ ٦٢

دار المعارف بمصر

اقــرأ ٦٢ الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

نصيح وعناد

قصر راسخ القواعد ، شامخ الذرا ، رسا أصله فوق شرف عال من الأرض ، وارتفعت قبابه فى الجو كأنها تطلب شيئاً فى السماء . وقد موهت بالنضار ، وسطع عليها الأصيل ، فأرسلت شعاعاً كان أجمل من الأصيل ، وأبهى من خالص النضار . وامتدت حول القصر البساتين الفيح تجرى بها الجداول بطيئة متعثرة ، كأنها تخشى أن تلتقى بنهر بردى فيلتقمها زخاره الخضم ، ويدور بها كالمذعور فيقتحم كل دار وينفذ من كل حائط . ورفت بها الأزهار رائعة الألوان ، مسكية الشذا ، وقد عبث بها النسيم فراحت تختبىء فى أكمامها كأنها الغيد الحسان خافت خائنة الأعين ، وفضول العاشقين . وماست أشجار الحور كأنما شجاها تغريد الطير فوقها ، فأخذت تسارق الأنغام ، وتساير رنين الإيقاع .

ذلك مشهد يجب أن يرى حتى يعرف ، ويجب أن تراه عين فنان لتدرك بعض ما به من جمال وروعة . أما القلم ، وأما اللسان ، فأعجز من أن يصلا فيه إلى صورة ، أو شبه صورة ،

تقربها العيون ، أو تطمئن لها النفوس . يقولون إن اللغة أداة البيان ، ويقولون إن اللغة بريد العقول ، فهل هى أداة البيان حقاً ؟ وهل هى بريد صادق يحمل ما فى نفسك إلى نفس غيرك ؟ إن من ضروب الأحاسيس ما يدق عن متناول اللسان ، ويستعصى على سنان القلم . وإن من الصور الغريبة الألوان الغريبة التركيب ، ما يعجز الوصف ، ويخرس البيان . ولن يملك المرء إذارآها إلا أن يصيح : هذا باهر ! هذا جميل ! هذا فاتن ! وكأنه يريد أن يقول شيئاً آخر فلا يستطيع . وستبقى الإنسانية هكذا عجماء حتى توفق إلى وضع كلمات جديدة تترجم عن كل ما تراه العين ، ويجيش به الوجدان . ويكفى أن أقول إن هذا المنظر كان بربوة الوادى بالجانب الغربى من دمشق ، وإن هذه الربوة ، تزدان بأبدع ما طرزته يد القدرة على هذه الأرض من حلل ، وإنها إلى جنة الخلد أشبه بالمطلع إلى القصيدة ، أو بالمقدمة إلى الكتاب ، وهى التى حينما رآها عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام قرأ قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

هذه هى ربوة دمشق ، وهذا هو قصر الوليد بن يزيد ، وكان يسمى قصر « حبابة » ، بناه يزيد بن عبد الملك الخليفة

الأموى لجاريته « حبابة » وأنفق فيه كثيراً من كنوز الدولة ، وقام على بنائه وزخرفه كبار مهندسي الروم ، فجاء صورة للفن الرائع ومظهراً لفخامة الملك ، وصولة السلطان .

وفى أحد أيام شوال من سنة ثلاث وعشرين ومائة ، جلس ببعض أبهاء هذا القصر يزيد بن الوليد ، ويزيد بن عنبسة ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، ويزيد السلمى ، وقد طال بهم الإطراق ، ودلت أسارير وجوههم على ما تنطوى عليه أنفسهم من أمر عظيم ، وهم دفين . وبعد لأى رفع الزهرى رأسه ، وكان من كبار المحدثين ، وأعلام التابعين ، عظيم المنزلة فى الدولة لعلمه وورعه ، وقال :

— لست أدرى لم بعثنا الخليفة هشام إلى هذا الرجل ، وهو يعلم أن انتقال جبل « قاسيون » من مكانه أهون وأيسر فى إدراك العقول من هدايته وزحزحته عما هوفيه من عبث؟ لقد حدثته مراراً ، وسقت إليه كثيراً من أقوال الرسول الكريم ، ووعظته فأطلت الوعظ ، فما كان يزيده كل هذا إلا تمادياً ، حتى كأنني كنت أغريه بلومى ، وأثير فيه شيطان الغرور بمواعظى ، « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » . صدق الله العظيم . فرفع إليه يزيد بن الوليد بصره ، ثم قلب وجهه عن ضجر واشمئزاز ، وقال :

— إن الأمر يا أبا بكر لو اقتصر على فتى سادر لهان وقلّت نوازله ، وخفّت أوزاره ، ولكنه أمر أسرة كريمة المنبت فى الجاهلية والإسلام ، وشأن دولة تحمل أعباء الخلافة ، وتحمى صخرة الدين أن تنهار ، بعد أن بُذلت جهود وعقول فى إرسائها ، وحُطِّمت سيوف فى توطيد أركانها . والشيخ يرى ما تنهض به دولة بنى أمية كل يوم من أعباء ، وما تشد من عزائم . فجيوشها لا تكاد تقفل من العراق وخراسان ، حتى تسير إلى أرمينية وأرض الروم ، فهى أبداً صائفة شاتية . وسيوفها لا تكاد تقر فى أغمادها ، حتى تُستل من جديد ، ولا تكاد تجف دماؤها من قهر خارجى ، حتى ينبع لها خارجى من أقاصى الأرض ، كأن الأرض أجدبت من كل نبات إلا من هؤلاء المناكيد . وإذا أسكتنا زئير أهل خراسان ، أطلت علينا ثورة فى المدينة ، ومدت رأسها فتنة بالعراق . فإذا لم تكن أزِمّة الدولة فى يد جريئة حازمة ، ولم يصرّف شئونها رجل داهية باقعة لم تستعبده الدنيا ، ضاعت الدولة بدداً ، وكانت حرضاً . وهذا الوليد بن يزيد الذى بعثنا اليوم هشام لنصحه ودعوته إلى الكف عن لهوه ، لو كان فتى من فتيان بنى أمية لا يرتبط بالخلافة ، ولا يتصل بسياسة الحكم بسبب ، لصرفنا عنه وجوهنا آسفين محزونين ، ولقلنا شاب أطغاه المال والشباب والحسب ، فراح ينتهب لذات

الحياة ، وإن له لغاية هو مدركها ، وأجلا هو موفّيه ، ولحظة ندم يهم أن يعتصم فيها بالتوبة فلا تنفعه التوبة . ولكن يأبى القدر إلا أن يكون الوليد هذا ولى عهد الخلافة ، وتأبى الأيام السود إلا أن تعده ليجلس حيث كان يجلس عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز . ويا ويل الخلافة ، ويا ويل الإسلام إذا ألقيت مقاليد الحكم فى يد هذا الرجل ! وإننا إذا جئنا اليوم لنكفه عن شهواته ، أو لنصلح من نفسه — إن كان ذلك الإصلاح مستطاعاً — فإنما إلى صون الخلافة نقصد ، وحماية الملك نريد . فتحرَّك يزيد بن عنبسة فى قلق المغيظ المحنق ، وقد كان قبل ذلك يعتمد برأسه على قائم سيفه حزيناً واجماً ، وقال :

— إن الله يريد لهذا الملك أمراً هو قاضيه ، فإننا ما كدنا نبتهج بموت أبيه يزيد بن عبد الملك ، وقيام خلافة هشام بعده ، حتى دهمتنا المقادير فحتّمت علينا أن يكون هذا الفتى ولىّ عهد هشام . لقد كان يزيد مسرفاً على نفسه ، قسّم أيامه وأمواله بين سلاّمة القس المغنية ، وحبابة اللّعوب ، وبنى لحبابه هذا القصر الشامخ الذى نجلس فيه اليوم ، وأنفق عليه من الأموال ما كان يكفى لغزو الصين ، وكل ما وراء البحر الأخضر من ممالك . ولكنا نحمد الله على أن عهده لم يطل ،

وأن هلاكه كان وشيكاً ، وكثيراً ما يكون الموت علاجاً إذا أعضل الداء ، وعزّ الدواء . كانت خلافته أربع سنين كادت تهوى فيها الدولة إلى الحضيض ، لولا قوة فيها كامنة من عزمات صلاب وطّدت آساسها من عهد قديم . وكأنه أراد أن يصل حباله بحبال ابنه فلم يمت حتى عهد بالخلافة بعده إلى هشام ، ثم من بعد هشام إلى هذا الفتى . وإن أخشى ما نخشاه بعد أن أعاد هشام إلى الخلافة عظمتها ، وغرس فى القلوب الرهبة منها ، وأقام عمودها ، وحرص على جمع الأموال لسد مفاقرها ، أن يأتى بعده هذا الوليد فيمحو آثارها ، ويبدد قوتهـا ، ويمكّن منها أعداءها القاعدين لها كل مرصد ، والمتربصين لها الدوائر ، والمتحرقين إلى فرصة يمزقونها فيها أشلاء ، ويأتون على بنيانها من القواعد . وليس لدينا من الرجال اليوم ما كان لنا والدولة فى عنفوانها ، والملك فى قوة اكتماله . فليس لنا مثل مسلم بن عقبة ، وليس لنا مثل الحجاج بن يوسف ، وليس لنا مثل قرة بن شريك . فإذا وقعت الواقعة ، وحلّت الفادحة ، وتركت الدولة فى أيدٍ خائرة لم تجد بين الدافعين عنها إلا بناناً مخضّباً ، ومعصما أدماه السوار . وويل لدولة تحميها النساء ! فأسرع الزهرى يقول :

— لقد حاول يزيد بن عبد الملك أن يخلع هشاماً من ولاية

العهد ، وأن يقدم ابنه عليه لولا أن أدركه الموت من حيث لم يكن يتوقّع . ولو أنه فعل لكان للمسلمين اليوم حال غير تلك الحال . وهنا اتّجه يزيد بن عنبسة إلى السلمى وقال :

ـ مالك لا تنازعنا الحديث أبا مساحق ؟ إن أكبر الظن أن كلامنا يثقل عليك ، فلقد رأيت سحابة غيظ تركد على وجهك منذ دخولنا . ولعلك لم تكن تتوقع أن يزور صاحبك اليوم قوم غلاظ شداد يصارحونه القول ، ويدعونه فى عنف إلى تقوى الله ومخالفة نفسه . فقال الزهرى :

ـ إن السلمى كان معلم الوليد ونصيحه ، وكان الأجدر به ، وقد قضى فى الإشراف على تهذيبه سنوات ، أن يقوّم قناته ، وأن يصرف عنه شياطين الفتنة ، فإنه لو فعل لأغنانا اليوم عن لقاء هذا الفتى وجبهه بما يكره . ووالله لولا أن ألح علىّ الحقيقة وألحف فى وجوب القيام بنصحه ، ما نقلت إلى داره قدما . فقال يزيد بن الوليد :

ـ ومن لهذا الأمر سواك يا ابن شهاب وأنت اليوم مناط هذه الأمة فى أمور دينها ؟ ولقد كان عمر بن عبد العزيز ناصحاً للمسلمين حين كتب إلى عمّاله فى الآفاق يدعوهم إلى الأخذ بآرائك فى الدين ، ويقول لهم : إنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية من ابن شهاب . فمد الزهرى يده إلى يزيد

كالمتوسل إليه أن يكف عن هذا المديح ثم قال :

ـ أرسل إلىّ الخليفة إبراهيم المخزومى بعد أن انفتلت من صلاة الغداة فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك إليه الساعة . فذهبت معه على تثاقل وكره ، فلما حضرت مجلسه أقبل علىّ كاسف النفس حزيناً ، وكان ولداه مسلمة والعباس واقفين فى خدمته ، ثم قال : اقرب منى قليلا أبا بكر . فقربت وسادتى من وسادته ، فاتجه إلى وقال : إنى نظرت يا ابن شهاب فى أمرى وأمر هذا الملك الذى أسوسه ، والأمة التى أرعاها ، فرأيت أنى أسير إلى الفناء وثباً ، وأعدو نحو الموت عدوا ، فإن هذه الذبحة ما زالت تعتادنى بين الحين والحين ، وقد استطعت حتى الساعة أن أنجو منها بذلك الدواء الذى أتجرعه ، ولكن نوباتها أخذت تتقارب وتطول ، وأخشى أن أكون مائتاً بعد أيام أو أشهر . وقد بذلت كل ما فى قدرة رجل مثلى لإنهاض الدولة وتمكين سلطانها ، ولو كنت أعلم أن الذى يلى هذا الأمر من بعدى رجل حمّال للأعباء ، شديد على الّلأواء ، كامل الرجولة ، طاهر النفس ، نقىّ الجيب ، يخاف ربه ، ويخافه عدوه ، لهان علىّ الأمر واستقبلت الموت سعيداً رضيًّا . ولكن الخلافة ستنتقل إلى ابن أخى الوليد ، وهو ـ كما علمت وعلم أهل الحضر والمدر ـ قد نسى نفسه ، ونسى حسبه ، وانصرف إلى جلساء السوء . فماذا



يكون من أمر هذه الأمة إذا وليها هذا الفتى ؟ وماذا يكون من أمر أطراف الدولة ، والثورات فيها لا تنطفىء نيرانها ، ولا يركد قتامها ؟ وماذا يكون من أمر ملك بقى إلى اليوم أكثر من ثمانين عاماً تؤثله جبابرة الأمويين بآرائهم وسيوفهم ؟ لن يبقى من ذلك شيء ، وستتمزق فلول بنى أمية فى البلاد حيارى مطاردين ، يحسدون رعاة الإبل فى الصحارى الجرد على ما هم فيه من رخاء ونعمة . لقد بذلت كل ما فى وسع بشر لإصلاح هذا الرجل ، فلم ألق نجحا . وكان من آخر أمرى أن وليته الحج بالناس لأصلح من سيرته وأغريه بتقوى الله إغراء ، فكان منه ما علمت وعلم الناس . والآن وقد ضاقت بى الحيلة ، أدعوك لتذهب إليه أنت ويزيد بن الوليد وابن عنبسة ، لتبصّروه بما يجب عليه إزاء الله ، وإزاء الخلافة ، وإزاء نفسه ، ولتخبروه بأن صلاحه لن يكون له وحده بل لهذه الأمة التى نخشى أن تذهب ضياعاً ، وتصبح نهباً مقسما . هذا يا أبا بكر آخر سهم فى كنانتى ، فإن أجاب وأطاع هدأت نفسى ، وإلا فله أمر هو فاعله . اذهب الآن مباركاً موفقاً ، وقد أمرت يزيد بن الوليد وابن عنبسة أن ينتظراك لدى الباب .

وكأن طول الحديث قد أجهد الزهرى فأخذ يرسل أنفاساً قصاراً متلاحقة ، ثم قال وهو ينظر إلى السلمى :

ــ وهكذا جئنا أبا مساحق لنروّض هذا المهر الحرون ، حتّى يسلس قياده ، وإنى أرى فى ملامحك ما يدل على الاستنكار والمخالفة ، فهل لديك من شىء يقال ؟

ــ لقد أطلتم الحديث ، وسلكتم فيه فنوناً ، ولكنكم اتجهتم اتجاهاً واحداً ، ونظرتم إلى الرجل من ناحية واحدة ، فصوّرتموه كما شاءت نفوسكم لاهياً مرحاً تسلّب من صفات الرجولة ، وقطّع كل صلة بينه وبين الخلق الكريم ، وهذا تصوير مائن أيها البررة الأتقياء . إنى خالطت الوليد منذ كان غلاماً فى الحادية عشرة ، وهو الآن يجاوز الثلاثين ، خالطته خلاط معاشرة واختبار ، وسبرت غور نفسه ، وعرفت ظاهر أمره وباطنه ، فرأيت أنه سر آبائه جميعاً ، ففيه دهاء مروان بن الحكم وشغفه بالانتقام ، وفيه تيه عبد الملك وكبرياؤه وصدق عزيمته ، وفيه عناد أبيه وضعف نفسه . ثم إن به عرقاً من أخواله بنى هاشم أمدّه بالبلاغة وإجادة الشعر ، وذلّل له سبيل التمكن من اللغة ومعرفة الأخبار . إنه ابن آبائه حقّاً ، ورثهم فى الجاه والمال والخلافة ، كما ورثهم فى الجبلة والخلق ، وفيما يزين وفيما يشين ، إنه حقيبة من وراثات مختلفة متباينة : فيها الخير وفيها الشر ، وفيها ما يسوء وفيها ما يسر . وأشهد إنى ما رأيته يقرأ القرآن أو يدرس أحاديث النبى الكريم إلا متطهراً متطيباً جالساً على

ركبتيه فى خشوع ورهبة . وأشهد إنه طالما حدثنى عن نفسه وما ينساق إليه من هفوات الشباب ، والدموع تنهمر من عينيه ، والحزن يملأ جوانب نفسه . وكثيراً ما كان يقول وهو فى تلك الحال : وماذا أفعل وقد خلقت ريشة فى مهب الأهواء ، وقصبة جوفاء فى بحر مائج بالفتنة والإغراء ؟ ثم يرفع رأسه إلى السماء فى رعب وضراعة وهو يردد : اللهم إنك إنما سميت الغفور لأنك تغفر لمثلى . وسمعته مرة وقد اجتمع بفتية من بنى أمية وهو يقول لهم : يا بنى أمية ، إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ، ويهدم المروءة ، ويثور ثورة الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء رقية الشيطان . إنى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلىّ من كل لذة ، وأشهى إلىّ من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال.

فأسرع ابن عنبسة يقول :

— أتخشى يا أبا مساحق إذا طال بنا المجلس أن تزعم أن صاحبك من الملائكة الأطهار .

— لا يا ابن أخى إنه ليس من الملائكة الأطهار ، إنه قد يكون أحياناً عبد نفسه إذا جمحت به أرخى لها العنان وتركها تسير به إلى حيث تريد . ولكنى أقول إنه رجل له جانبان ؛ جانب للخير يظهر فيه نبله وكرم عنصره وطهارة عرقه ، وجانب

للشر يرحل فيه العقل ، وتنحل العزيمة ، ويختفى الوليد الشريف الكريم ، ويأتى الوليد الظريف المرح . وربما كان فى انقياده إلى نوازع نفسه لا يزيد عن أمثاله من الفتيان الذين خلقوا على غرار فطرته ، ولكن الوليد أضاف إلى ما فيه من ضَعف العزيمة ما طبع عليه من العناد والتحدى والتباهى بازدراء آراء الناس ، وعدم المبالاة بلوم اللائمين . فلم يُراءِ كما يراءون ، ولم يخف الرقباء كما يخافون ، بل قال ما يقول فى علانية وسخرية ، وكشف ذات نفسه لأعدائه وأصدقائه فى غير خوف أو حذر . ومما أكثر فيه القالة شغف الناس بالأقاصيص وغرائب الأخبار ، فهم إذا نقل إليهم كاذب أنه شرب كأساً لم يرقهم أن ينقلوا الخبر كما هو . وأى طرافة فى أن يشرب شاب كأساً محرّمة بعد أن فسد الزمان ؟ فراحوا يقولون إنه شرب باطيتين حتّى انتفخ بطنه . وهنا ابتدره ابن عنبسة فقال :

— إن الناس لا ينقلون إلا ما يسمعون من غلمان القصر وجواريه . وقد بلغنى أنه اصطنع بركة فى هذا القصر ، وملأها خمراً ، وأنه إذا استخفه الطرب ألقى فيها بنفسه وأخذ يكرع ، حتّى يبين النقص فى أطرافها .

— هذا اختلاق مائن ، وإفك كاذب . فالوليد أبغض الناس للقذر ، أوما فيه احتمال القذر ، وهو لحرصه على النظافة لا يشرب

من إناء شرب منه غيره . ثم كيف يستساغ فى العقل أن يشرب من البركة حتى يظهر النقص فيها ؟ إنه لو فعل لكان اليوم من الهالكين ، واسترحنا من الجدل فى شأنه . وهذه الفرية البلقاء لا تقل فى بشاعة كذبها عما يتناقله الناس من أنه أراد يوماً أن يتفاءل ، ففتح المصحف ، فكانت أول آية تقع تحت عينيه قوله تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » . فقد قالوا إنه غضب عند ذلك وعربد ومزّق المصحف وقال :

أتوعد كل جبّار عنيد ؟ فها أنا ذاك جبار عنيدُ !
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد

ويكفى لتفنيد هذا الهراء أنى أعلم وأنكم تعلمون أن العرب على ولوعها بالتفاؤل ، لا تتفاءل بالمصاحف ، ولا بما يدوّن فى الكتب ، فإن ذلك لم يكن من عاداتها منذ خلق الله الصحراء والجمل .

وأكبر الظن عندى أن هناك ثلاث طوائف تعمل على الكيد لبنى أمية كلهم لا للوليد وحده ، وأنها تبذل الجهد ناشطة لإسقاط الدولة ومحو آثارها . وهذه الطوائف هى طائفة الناقمين من غير العرب بعد أن أذلهّم بنو أمية ، وقضوا على عزمهم ومجدهم ، وأنزلوهم بدار الهوان والاتعاس . وطائفة بنى العباس الذين يدعون « لمحمد بن على » والذين ربضوا بخراسان متربصين ، يتحينون الفرصة للوثبة ، وينشرون جواسيسهم وعمالهم فى البلاد ليبثوا

فى الناس كراهية الخلافة ورجال الدولة ، ويذيعوا عنهم خروجهم على الدين واحتجابهم الأموال وتبديدها فى اللهو والنعيم . وهناك شيعة على بن أبى طالب ، الذين يجتذبون الناس بزهدهم ، ويستدّرون عطفهم بما أوقع بهم بنو أمية من القتل والتشريد ، هؤلاء جميعاً يعملون كادحين لإسقاط عرش الأمويين . وقد وجدوا فى الوليد منبعاً فيّاضاً لإشاعة الأكاذيب ، وابتداع الأخاليق ، وراحوا يهوّلون فى كل ما يبدو منه من لهو . فإذا لم يصدر عنه شىء رسم خيالهم أبشع الصور ، ولفّق لهم أسوأ الأحاديث . وهنا التفت إليه الزهرى وقال :

— عجيب أمرك يا ابن مساحق ، تعترف بعبث صاحبك ثم تدفع عنه ، وحينما ترى أن حجتك لا تنهض بجناح ، تحاول أن تنقل الأمر من الوليد إلى بنى أمية عامة ، ثم إلى ما يحيط بهم من أحداث وأعداء .

— لا يا أبا بكر إننى إنما أنكر على الناس تعصبهم عليه ، وتألبهم للكيد له ، وأخشى أن يكون من أسباب ذلك أنه ولى العهد ، وأنه يسد الطريق على أبناء هشام . ولعله لو تخلى عن هذه الولاية لارتدت عنه سهامهم ، ولعاش كما يعيش غيره ، ولسكتت عنه ألسن السوء .

وبينما هم فى الحديث إذ بدت لهم من النافذة ، عن بعد ،

جماعة من الفرسان ، تثب الكلاب من حولهم ومن خلفهم ، وقد سار فى المقدمة فارس معتدل القامة ، كأنه عامل الرمح ، وهو يعبث بسوطه فى الهواء . فقال السلمى : هذا هو الوليد ومعه فتيانه ، وقد قدموا من الصيد ، وسيكونون بيننا بعد قليل .

فتمكن الزهرى فى مجلسه ، وتمتم بكلمات ربما كانت تسبيحاً ، وربما كانت استنكاراً . وومضت عينا ابن عنبسة بالشر ، وتنحنح يزيد بن الوليد وقال فى حزن وأسى :

ــ وهكذا تدور حياة هذا الشاب بين مرح ولهو وغناء وطرب ! يا لضيعة بنى أمية !

ويصل الوليد إلى القصر ، ومعه من ندمائه كاتبه عياض بن مسلم ، وابن سهيل ، والمنذر بن أبى عمر ، وعبد الصمد بن عبدالأعلى. فيسرع إليه غلامه رستم الفارسى ، وخادمه سبرة ، فيخبرانه بكل ما دار بين القوم من أحاديث ، فيعبس وجهه قليلا ، ثم ينبسط عن ابتسامة ماكرة ، فيها عناد ، وفيها تشف ، وفيها انتقام وعبث . ثم يقول : أبعثهم إلىّ هشام لينصحونى أم ليمهدوا السبيل إلى خلعى من ولاية العهد وتولية ابنة مسلمة ؟ والله لن أخلع ما وضعه الله فى عنقى أو أموت دونه! يقولون إنى لاه عابث ، سأريهم يا سبرة كيف أعبث بهم ، وكيف ألهو بأشياخهم ، وسأريهم أنى لا أبالى بما يذيعون عنى من

كذب وبهتان . ادع عمر الوادى وأبا كامل ، وادع جميع المغنين ، فسوف يعرفون اليوم من هو الوليد بن يزيد ؟ وانطلق سبرة يطيع أمر مولاه ، وما هي إلا لحظات حتى سمع رنين العيدان ، ونقر الدفوف ، وأقبل المغنون ومشى أمامهم الوليد نحو زوّاره . فلما دخل عليهم كان أبو كامل يغنى :

علّلانى واسقيـــانى من شراب أصفهانى
من شراب الشيخ كسرى أو شراب الهرمُزان
إن بالكأس لمسكا أو بكفّى من سقانى
إنما الكأس ربيــع يُتعــاطى بالبنــان

وكانت القيان تدق بالكفوف والدفوف ، ويمشين فى خفة ومرح ، كأنهن الحمائم ترف رفيفاً . ثم اتجه الوليد إلى عمر الوادى صائحاً : يا جامع لذتى ومحيى طربى ، غنى من خفيف الرمل بالبنصر ، فانطلق يغنى :

اصدع نجىّ الهموم بالطرب
وانعَم على الدهر بابنة العنبِ
واستقبــل العيش فى غضارته
لا تقفُ منــه آثار معتقب
من قهــوة زانهــا تقادُمهــا
فهى عجوز تعــلو على الحقب

أشهى إلى الشرب يوم جلوتها
من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورقّ جوهرها
حتّى تبدّت فى منظر عجب
فهى بغير المزاج من شرر   وهى لدى المزج سائل الذهب
فى فتية من بنى أمية أهـ   ـل المجد والمأثرات والحسب
ما فى الورى مثلهم ، ولا بهم   مثلى ، ولا منتم لمثل أبى

وما كاد ينتهى من غنائه حتى هجم عليه الوليد ، وأخذ يقبّله ويخلع من عقود الجوهر التى يتحلّى بها ويضعها فى عنقه .

وهنا لم يطق الزهرى الصبر ، فهمّ بالوقوف ودعا صاحبيه إلى الخروج ، ولكن يزيد بن الوليد اجتذبه من كمه وهو يقول : إننا لا نستطيع أن نغادر القصر من غير أن نقضى حاجة هشام ، فإنك تعرف ثورة غضبه على من يتهاون فى تأدية ما يطلبه منه . ولمح الوليد ما يدور بين القوم فصرف المغنين ، ثم أقبل على الزهرى فى أدب وخشوع وكثير من الوقار ، كأن لم يكن شىء ، وكأنّ ما ملأ البهو من لهو وطرب منذ لحظة لم يكن منه شىء . أقبل على الزهرى فحيّاه ورحّب به ، ثم نظر إلى يزيد بن الوليد وإلى ابن عنبسة نظرة صلف ، أتبعها بتحية ، فيها تيه ، وفيها اعتزاز ، ثم أخذ يسأل الزهرى عن مسائل فى الحديث وغريب

اللغة والقرآن ، والقوم فى دهش جارف ملك عليهم ألسنتهم ، وأذهل عقولهم . فلما هدأت نفس الزهرى قال :

— إننا جئنا إليك يا بنى من قبل الخليفة لنسدى إليك النصح ، وندعوك إلى ترك ما أنت فيه من لهو يقضى على المروءة ، ويعبث بالشرف . وقد ضاق الخليفة ذرعاً بما يسمعه عنك ، وما ينقل إليه من أمرك . ثم إنه الآن ، وقد تقدمت به السن ، يخشى أن يترك الخلافة فى يد من لا يصونها أو يستطيع النفح دونها . وهؤلاء المسوّدة — كما يسمونهم — أو دعاة بنى العباس ، قد ظهروا بخراسان ، وأصبح لهم عديد وعدة ، وأشياع وأنصار . فإذا لم يحم الخلافة رأى نافذ ، وعزم باطش ، ضاع الملك الذى أثلتموه ، ولاقى بنو أمية من أعدائهم شر ما يلاقى الذليل المقهور . فالخليفة ينذرك ويدعوك إلى التوبة ، ونبذ ما أنت فيه ، ويطلب إليك أن تسرّح ندماءك وأصفياءك ، وأن تبتدئ حياة جديدة كلها جد وصلاح ، وابتعاد عن الدنيا ، واهتمام بشئون الدولة حتى تكون أهلا لولاية العهد .

كان الوليد ينصت عابساً مفكراً يعبث بأصابعه فى شعرات لحيته ، وما كاد ينتهى الزهرى حتى أرسل قهقهة طويلة اهتزت لها جوانح صدره ، ثم نظر إلى القوم وقال :

— ألأجل ذلك جئتم ؟ ومن أجل هذا أتعبتم دوابكم حتى

بلغتم قصرى ؟ لقد سخر منكم هشام وغرّر بكم . إن ما يجرى فى قصرى من اللهو العفيف لا يزيد عما يجرى فى قصور فتيان بنى أمية . ثم التفت إلى ابن عنبسة ويزيد وقال : وعما يجرى فى دار ابن عنبسة وفى قصر يزيد ، وإن أبناء هشام أنفسهم يتمتعون بالحياة طولا وعرضاً وعمقاً ، ولكن هشاماً يريد شيئاً آخر ، يريد أن يسخّركم من حيث لا تشعرون فى مأرب هو أقصى أمانيه ومنتهى آماله ، يريد أن يهدم هذا السد الذى يحول بين ابنه مسلمة والخلافة ، يريد أن يخلع عنى ولاية العهد بعد أن أقسم عليها أمام أبى أغلظ الأيمان ، وأعطى أوثق العهود ، ليقدمها إلى « أبى شاكر » هدية غالية ثمينة تبقى فى أولاده وأحفاده أبد الدهر . ولم ير للوصول إلى ذلك من سبيل إلا أن يثلب عرضى ، ويكثر فىّ قالة السوء ، ويبعث حولى جواسيسه وعيونه ليجعلوا من الفأرة جملا ، ومن بيت النملة قصراً ، وليملئوا الدنيا بأخبار زندقتى ، حتى لقد أصبحت حديث السمّار ، ومثلا شروداً فى اللهو وحب الطرب . وإنى أسخر منه ومن أعوانه ، وأزيد فى نكايته بإصرارى على ما أحب ، وتمسكى بما يكره . ثم إنه أراد أن يخطو خطوته الأخيرة فبعثك يا ابن شهاب ، وأنت من أنت فى رأى العامة والخاصة علماً وديناً ونسكاً ، ليستشهد بك لدى الناس إذا خلعنى ، وليقول لهم لقد صبرت عليه كثيراً فلم يزدجر ،

ونصحت له كثيراً فلم يرعو ، وهذا الزهرى على ما أقول شهيد.
لقــد حرمنى العطاء منذ عدت من الحج ، وضيّق على وعلى ندمائى ، ولكنى لم أبال به ، ولم آبه له ، وإن لى من ميراث أبى ومن أموال أخوالى ما يزيد عن حاجتى ، وإن فى نفسى يقيناً لا يزعزعه إرهاب هشام ، ولا تنقص منه صولة هشام ، ذلك أنى سأكون خليفة على رغم أنوف بنى أمية جميعاً ، وأن هشاماً سيموت ويزول ملكه ، ويذهب معه نهمه ، وتدفن مطامعه ، وسأكون من بعده الخليفة الأموى الفتى . وسوف أثيب أصدقائى أجزل الثواب ، وأذيق أعدائى مرّ العذاب . فلقد أعددت فى سرداب القصر مائة قيد من حديد كتبت على كل قيد اسم صاحبه . ثم التفت إلى ثلاثتهم وقال : وأكبر ظنى أن أسماءكم بين ما كتب من أسماء ، وسوف يقول الناس إن الوليد لم يكن غرّاً مائقاً ، ولم يكن مغفّلا ماجناً ، لأنه عرف أعداءه فمحقهم ، وعرف أحباءه فأجزل عطاءهم .

أنا ابن أبى العاصى وعثمان والدى
ومروان جدى ذو الفعّال وعامر
أنا ابن عظيم القريتين وعزهـــا
ثقيف وفهر والعصاة الأكابر

نبيّ الهدى خالى ، ومن يلك خاله
نبي الهدى يقهر به من يفاخر

ثم وقف ومد يده إلى الزهرى وهو يقول : إذا لقيت هشاماً فقل له عنى :

كفرت يدا من منعم لو شكرتها
جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبنى جاهداً فى قطيعتى
ولو كنت ذا حرم لهدّمت ما تبنى
أراك على الباقين تجنى ضغينة
فيا ويحهم إن متّ من شر ما تجنى !
كأنى بهم يوماً وأكثر قولهم
ألا ليت أنا ، حين « ياليت » لا تغنى

ثم ترك البهو فسار خلفه غلاماه وترك القوم مشدوهين حائرين ، فأخذ الزهرى يجمع ثيابه ويتهيأ للخروج ، وهو يقول : صدق رسول الله : إن لكل دين خلقاً ، وإن خلق الإسلام الحياء .

رشد وغىّ

كان الوليد من أصبح الناس وجهاً ، وأشدهم قوة ، وأرقهم طبعاً ، وأظرفهم حديثاً . وكان فارعاً متين البناء يكاد يتفجّر منه ماء الشباب ، وكان أعظم ما يجتذب إليه النظر عيناه السوداوان الواسعتان اللتان يلتمع منهما وميض وهاج ، فيه القوة والعزيمة والشراسة ، ثم لا يكاد يظهر هذا الوميض حتى يختفى وتأخذ مكانه نظرات ذابلة ناعسة ذاهلة ، فيها شعر ، وفيها خيال ، وفيها ما يشبه الذهول . وكان يلبس حلة خضراء من الحرير الدبيقى فوقها جبة بيضاء طرزت حواشيها بالذهب وتغطى رأسه عمامة من الخز الأحمر حلّيت أطرافها بالدر الثمين ، ويتقلّد عقوداً من نفيس الجواهر المتلألئة الباهرة الألوان . وكان يغيّر هذه العقود فى اليوم مراراً كما يغير حلله وأثوابه .

قصد الوليد بعد أن ترك من جاءوا لنصحه إلى حجرة فسيحة كان بها جماعة من ندمائه وإخوانه ، وكان بينهم أشعب بن جبير مضحكه ومنادره ومسليه . وكان أشعب آية زمانه فى سرعة البديهة ، وتوقد الذكاء ، وحسن الحيلة ، وإجادة النادرة ،

وإثارة الضحك من غريب ما يقول وعجيب ما يفعل .

وكان لا يحب أن يزاحمه أحد فى فنونه وألاعيبه . فقد زعموا أن رجلا بالمدينة حاول أن يسلك مسلكه ، وأخذ يحاكيه فى مذهبه ونوادره ، حتّى استطابه الناس وأعجبوا به ، وعلم أشعب بخبره فرقبه حتّى عرف أنه يختلف إلى مجلس لبعض فتيان قريش يحادثهم ويضحكهم ، فسار إليه ثم قال له : بلغنى أنك قد نحوت نحوى ، وشغلت عنى من كان يألفنى ، فإن كنت مثلى فافعل كما أفعل. ثم غضّن من وجهه وعرّضه وشنّجه حتّى صار عرضه أكثر من طوله ، وصار فى هيئة لم يعرفه بها أحد . ثم أرسل وجهه وقال : ثم افعل هكذا ، وطوّل وجهه حتّى كاد ذقنه يتجاوز صدره ، وصار كأنه وجه الناظر فى سيف لامع . ثم نزع ثيابه وتحادب فصار فى ظهره حدبة كسنام البعير ، وأصبح طوله مقدار شبر أو أكثر . ثم قام فتمدد حتّى صار أطول ما يكون من الرجال . فضحك القوم حتّى أغمى عليهم ، وبهت الرجل فما تكلم بنادرة ، ولا زاد على أن يقول : يا أبا العلاء علىّ لله عهد ألا أعاود ما تكره ، وإنما أنا تلميذك وخريجك .

وكان أشعب فى ذلك الحين قد جاوز التسعين ولكنه بقى مستكملا قوته ، حافظاً لفنّه ودعابته . وكان دقيق الجسم ناحله ، أزرق العينين أحولهما ، أصلع الرأس حتّى كأن رأسه كرة

من الشمع اللاّمع . وحينما ورد على الوليد حظى عنده فأمر خدمه أن يلبسوه سروالا من جلد قرد له ذنب طويل . وأن يشدوا فى رجليه أجراساً وفى عنقه جلاجل .

دخل الوليد على ندمائه باشًّا مبتهجاً كأن وفد هشام لم يثر فى نفسه همًّا ، ولم يكدر له صفواً ، فشرع ابن سهيل يقول :

ـــ لقد أحسنت إجابتهم يا مولاى وكشفت خديعتهم ، ولكنى أخشى ألا يقف هشام عند هذه الغاية ، وأخشى أن يكون ما فعله اليوم إنما هو تحفز لهجوم ، وطليعة لمكيدة جديدة . فقال عياض :

ـــ إن هشاماً لا يستطيع أن يمس الوليد ، ولكنه سيصب غضبه علىّ وعليك يا أبا وهب . فقد بلغنى من مولاه يعقوب ـــ وهو جاسوس لى عليه ـــ أن حديثاً جرى منذ يومين بشأن الوليد وندمائه ، وأن جواسيسه نقلوا إليه بعض شعرك الذى تمدح به الأمير وتذكر ما يرجى منه إذا ولى الخلافة ، وترمى فيه هشاماً بأقبح الصفات ، فغضب حتى كاد يعود حوله عمى ، ثم صاح : والله لأقصّن جناحيه ، ولأفرقنّ عنه قرناء السوء الذين يمالئونه علىّ ! والرجل بطّاش منتقم ، يقتنص العصفور من بين براثن النسور ، ولا يترك أعداءه للمقادير . وهنا قال عبدالصمد بن عبد الأعلى :

— وكل حقده عليّ أني لم أخضع لأمره ، ولم أقنع الوليد بالتخلي عن ولاية العهد . فأسرع عياض وقال :

— إن لي ولك عنده ذنوباً لا يحصيها العد ، ولكنا لن نبالي به ، ولن نأبه لوعيده ، وسنكون ألصق بالوليد من جلده ، وأقرب إليه من عقوده ، ولو لقينا في سبيل ذلك الموت . ولله غيب هو مظهره ، ولعلها غمرات ثم ينجلين ، وظلمة يتبعها سفور الصباح . إن الرجل مضطرب مصاب بمرض يسمى ولاية العهد ووجوب انتقالها إلى ابنه مسلمة . فصرخ الوليد :

— دون هذا وتسيل الدماء . إن ولاية العهد قد كتبت في سجل القدر ، ولن يستطيع هشام أن يمحو مدادها ولو استعان بأمواج البحار . ثم قام في اختلاج واضطراب إلى ندمائه فأخذ يقبّلهم واحداً واحداً ، والدموع تنهمر من عينيه ، وهو يقول : أنا أعلم أن المكروه سيصيبكم من أجلي . ويل لي ! وويل لكم مني . أليس مما يمزق القلب أسفاً أني لا أقدر أن أدفع عن أصدقائي وخلصائي ؟ إنني إزاء بطش هذا الرجل أضعف من ذات خمار . ولقد عرف كيف ينتقم مني فيكم ، وعرف كيف يحرمني بفقدكم طيب الحياة . إنني أعلم أن كلمة واحدة من فمي تنقذكم جميعاً ، ذلك بأن أذهب إلى هشام وأقول له إني تخليت راضياً عن ولاية العهد ، ولكني لن أفعل شيئاً من

هذا : لأنى أعلم أنى أحب إليكم من أنفسكم ، وأنكم تفدوننى بأرواحكم ، وأن أكبر آمالكم أن أصبح خليفة وأن أشفى نفسى بدماء أعدائى . ثم ضحك طويلا حتى كادت تسقط عمامته ، وقال : موتوا مطمئنين أيها الأوفياء . ثم التفت إلى ابن سهيل وقال : ما أجملك مصلوباً يا أبا وهب ، وقد امتدت ذراعاك فى الهواء كأنك لا تزال تذكر عناق الحسان . لا تجزع يا حبيبى ، ومت آمناً فسأقتل بك عشرين فتى من فتيان بنى أمية . أما أنت يا ابن مسلم فما تطيب له نفسك أن تعلم أن سيفاً منذ طبعت السيوف لم يقطع عنقاً أشرف ولا أكرم من عنقك . فلا تبتئس أيها الصديق ، وسر إلى الموت كريماً ، فسأقتل بك خمسين فتى من فتيان بنى أمية . وهنا صاح أشعب بصوت يشبه نقيق الضفادع قائلا : أما أنا أيها الأمير فسوف أموت فرحاً مسروراً ، لأنك ستقتل بى مائة عجل من عجول بنى أمية ! فأغرق القوم فى الضحك ، وقام الوليد يعدو وراءه ، ففرّ منه وهو يقفز أحياناً ، ويمشى على رأسه أحياناً ، ولجلاجله صليل ورنين . ثم صاح به الوليد :

— ماذا كان جواب الرسالة التى بعثتك بها يا قرد السوء ؟ ولِمَ لم تخبرنى بما تم فيها بالأمس ؟

— انتظرتك حتى تفرغ من مجالسك يا أبا العبـــاس ،

وكنت أظن أن ذلك لن يكون إلا فى العام المقبل .

ــ سأكون فى العام المقبل خايفة فلا أحتاج إلى الاستشفاع بك .

ــ ولكنك ستكون بطبائعك الوليد بن يزيد الذى نعرفه جميعاً فلا تستغنى عن شفاعتى . فضحك القوم ، وقال ابن سهيل : ما تلك الرسالة أيها الأمير ؟

فتأوّه الوليد وغشيت وجهه سحابة من الحزن وقال :

ــ رسالة إلى سعدة .

ــ ألا تزال تذكرها ؟

ــ دعنى بالله يا ابن سهيل ولا تثر لواعج نفسى ، فإنى كلما ذكرت عهدها طار بى الشوق إليها وهزّنى نحوها الحنين . إننى رجل منكود الحظ ، شقى الطالع ، لا أكاد أصل فى سلّم السعادة إلى درجة أشرف منها على الحياة حتى يسقط بى السلم فى هوّة لا ينادى وليدها ، ولا يرجى فقيدها . لقد كان حبنا سماويـًّا لم ينعم بمثله زوجان فوق الأرض الفانية ، ولقد مرّت بنا سنوات كأنها بسمات الروض لأشعة الصباح عشنا فيها تظلنا دوحة الحب سعيدين هانئين .

ــ إلى أن رأيت أختها سلمى .

ــ إلى أن رأيت أختها سلمى يا ابن سهيل ، ويلاه . ليت

هذا اليوم لم يكن . ذلك كان يوم أن ذهبت لأعود أباها سعيد ابن خالد ، وإنه ليوم بالغ الأثر ، شديد الخطر ، تبدّلت فيه حياتى ، واضطربت من بعده أيامى ، لمحت فيه سلمى وقد برزت بوجه لم تشرق الشمس على أجمل منه ، وقامت حولها جواريها ليسترنها عنى ففرعتهن طولا ، فاهتز لها قلبى ، وخفقت جوانحى ، ورحت بها صبًّا متبولا لا يستقر لى قرار ، ولا ينطفىء أوار .

ـــ لذلك طلّقت سعدة لتفوز بأختها .

ـــ نعم طلقتها فى لحظة جنون ، وكنت أظن أن الوصول إلى سلمى بعد ذلك من أهون الأمور ، وأنه ليس علىّ إلا أن أخطبها من أبيها فيجيب شاكراً مسروراً .

ـــ ولكن هشاماً وقف بينك وبينه ، وحال بين الثّمرة اليانعة وجانيها .

ـــ نعم يا أبا وهب فرجعت صفر اليدين ، أندب محبوبتين ، وأعانى آلام غرامين ، فلا على سعدة حصلت ، ولا بسلمى ظفرت .

ـــ والآن تريد أن تعود إلى مودة سعدة بعد أن هجرتها وهجرتك وبعد أن أصبحت ذات بعل ؟

ـــ إن غرامى بها يكاد يصل إلى حد الجنون ، إن لى أملا

فى أن تنفصم عقدة زواجها فأعود إليها كما كنت زوجاً وافر الحظّ سعيداً .

— عجيب كل أمرك أيها الأمير ، وأعجب ما فيه أنك بعد أن عاودك الهيام بسعدة لا تزال تحب سلمى .

— لا أزال أحبها ؟ إننى أحبها كما يقول ابن أبى ربيعة : « عدد الرمل والحصى والتراب » إن لى فى الحب يا ابن سهيل مذهباً لا تعرفه .

ثم اتجه إلى أشعب وصاح : ماذا كان جواب الرسالة أيها القرد الأحمق ؟ فتقدم منه أشعب وهو يتصنّع الخوف وقال :

— ذهبت إليها بالأمس يا سيدى فلما أذن لى عليها ، رأيت صورة رائعة الحسن ما وقعت على مثلها عيناى ، فملكتنى الدهشة ، وتعثّر بى لسانى ، فلما اطمأنت نفسى ، واستقرّ بى مجلسى ، وقفت أقول وأنا أرتعد رعباً : يا سيدتى هذه رسالة مولاى الوليد إليك ، وهو يقول لك فيها :

أسعدة هل إليك لنا سبيل ؟ وهل حتى القيامة من تلاق ؟
بلى ، ولعل دهراً أن يواتى بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتاً وتقر عينى ويجمع شملنا بعد افتراق

وما كدت أتم البيت الثالث حتى صرخت فى وجهى ، وأخذت تصيح بخدمها : خذوا عنى هذا الفاسق الفاجر ،

جرّوه من رجليه ثم اقتلوه فى بستان القصر ولا تدنسوا بدمه بساطى . فلم أملك نفسى من الرعب والوهل ، وتعلقت بطرف ثوبها فى ذلة وتوسل وأنا أقول : ارحمينى يا مولاتى . ارحمينى بحق جدك عثمان بن عفان . لقد والله كنت أعرف أنى مقدم على مثل هذا ، ولكن ماذا أصنع وأنا أشعب ، وقد أغرانى ثمن هذه الرسالة المشئومة ؟ إن ثمنها يا مولاتى عشرة آلاف درهم ! عشرة آلاف درهم ! فابتسمت قليلا وقالت : والله لأقتلنك أو تبلغه كما بلغتنى : فهدأت نفسى وقالت : وماذا تهبين لى من أجر على رسالتك ؟ قالت : بساطى الذى تحتى . قلت : قومى عنه إذا فإنى لا أحب بيع النسيئة . فقامت عنه وطويته تحت إبطى ، ثم قلت : هاتى رسالتك جعلت فداك . قالت : قل له :

أتبكى على لبنى وأنت تركتها ؟ فقد ذهبت لبنى، فما أنت صانع؟!

وما كاد ينتهى حتى وثب عليه الوليد كأنه الجمل الصائل ، ولكن أشعب استطاع أن يفر منه قبل أن يلثمه بسوطه فصرخ الوليد : إنها تقول : فما أنت صانع ؟ الذى أصنعه يا ابن أم الحلندج أن أدلّيك منكساً فى بئر ، أو أن أقذف بك من قمة القصر ، أو أن أضرب رأسك بسيفى ضربة أطيح بها رأسك . هذا هو الذى أنا صانع . فوقف أشعب فى ثبات وثقة وقال :

— والله ما كنت لتفعل شيئاً من هذا .

— ولم يا ابن المجلودة ؟

— لأنك لم تكن لتعذب عينين نظرتا إلى سعدة . فارتد الوليد عنه وهو يتأوه ويقول : نجوت يا ابن الورهاء . اعزب عنى أيها الأزرق المشئوم .

وأذن مؤذن المغرب فانتفض الوليد كمن يرفع رأسه من لجة غامرة ، وتبدلت حاله ، ولبسته صورة رائعة من الخشوع والتبتل ، ونظر إلى السماء فى ذلة وخشية ، وأسرع غلامه سبرة فأحضر إبريقاً وطستاً فتوضأ ، وقام القوم فتوضئوا ، ثم صاح بصوت هز أرجاء القصر: الصلاة الصلاة. ونهض فأم من بالقصر ، فلما فرغ من الصلاة أخذ يجاذب ندماءه طرائف الأحاديث والأخبار ، حتى إذا مر طرف من الليل صاح : أين النوار ؟ أين سعاد الكوفية ؟ أين جامع لذتى ومحيي طربى ؟ أين عمر الوادى ؟ وكأنهم جميعاً كانوا يترقبون هذا الأمر ، فما مرت لحظات حتى أقبل الجوارى والمغنون . فطلب إلى عمر الوادى أن يغنيه بشعره فى سلمى ، فعزفت العيدان ، وارتفع صوت الناى ، ودقت الدفوف ، وأخذ عمر يغنى هزجاً بالبنصر .

يا سليمى يا سليمى كنت للقلب عذابا
يا سليمى ابنـــة عمى برد الليــــل وطابا
أيما واش وشى بى فاملئى فاه ترابا

ريقها فى الصبح مسك   باشر العذب الرضابا

فطار عقل الوليد من الطرب ، وخلع جبته وقذف بها فى وجه عمر وهو يقول : خذها لا بارك الله لك فيها ، ثم زدنى بالله زدنى ، فانطلق يغنى رملا بالبنصر :

يا من لقلب فى الهوى متشعب ؟
بل من لقلب بالحبيب عميد ؟
سلمى هواه ليس يعرف غـيرها
دون الطريف ودون كل تليد ؟
إن القـرابة والسعادة ألّفـا
بين الوليد وبين بنت سعيد

فما أتم غناءه حتى قام الوليد فاختطف الدف من جاريته صدوف غاضباً وقال : أنت لا تحسنين الإيقاع يا جارية ! دق عليه أنت يا ابن عائشة ، وغننا بالله يا أبا كامل ، فأسرع يغنى :

ويح سلمى لو ترانى   لعناها ما عنـانى
متلفاً فى اللهو مالى   عاشقاً حور القيان
إنما أحـزن قـلبى   قولى سلمى إذ أتانى
ولقـد كنت زماناً   خالى الذرع لشانى
شاق قـلبى وعنانى   حب سلمى وبرانى

ولكم لام نصيح فى سليمى ونهانى

فكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فلما هدأت نفسه ، وثب مسرعاً إلى الجناح الذى تسكنه أمه ، وهو يصيح : ياسبرة اطرد المغنين ، واصرف الجوارى ، فقد سئمت هذا العبث . أخرجهم من القصر إن شئت فإنهم جنود إبليس فى هـــذه الأرض .

دخل الوليد على أمه حزيناً مطرقاً يكاد يطفر الدمع من عينيه ، وكانت أمه بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفى أخى الحجاج بن يوسف ، فى نحو السادسة والأربعين ، وهى على تجاوزها ريعان الشباب ، لا تزال تزهى بلمحات جمال بارع ، لم تذهب بنضارته السنون . وكانت مولعة بالوليد كثيرة التدليل له ، والرفق به ، والإغضاء عن هفواته .

دخل عليها فرآها جالسة على أريكة نجّدت بالحرير ، وطرّزت ستائرها بالقصب ، وقد لفّت رأسها بخمار من الحرير الأسود ، فبدا منه وجهها كما يبدو البدر فى حلك الظلام . وكانت تقرأ القرآن ، وأبو رقية أمامها ممسك بالمصحف يستمع لتلاوتها .

وكان أبو رقية هذا فى طليعة شبابه شديد الذكاء متوقد القريحة ، تجرد لطلب علوم الدين والقرآن ، فأوغل فى الدرس ،



وواصل فيه ليله بنهاره ، فغلبت عليه المرة السوداء ، فاختلط عقله ، وأصابته لوثة ، وانتابه البله فى أكثر أحواله . ولكنه كان يفيق أحياناً فيثوب إليه عقله . ويعاوده ذكاؤه ، ويصدر عنه من الدهاء والمكر ما يعز على أكثر العقلاء . وقد يرى فى أثناء إفاقته أن من الخير له أن يتباله ، فلا يكاد يفرق من يراه بين بلاهته المطبوعة ، وبلاهته المصنوعة . ومما يؤثر من نوادره فى إحدى نوبات جنونه ، أنه كان يحمل مرة فى طرف ثوبه بيض دجاج ، فأحرده الصبيان وهموا برجمه بالحجارة ، فخاف على البيض منهم ، فوضعه على الأرض وجلس عليه حتى لا يراه منهم أحد .

واتفق عند دخول الوليد أن كانت أمه تقرأ قوله تعالى : «نبّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . فانكب على يديها يقبلهما فى حزن وخشوع ، وهو يجهش بالبكاء ويغمغم : نعم يا أماه ، إنه هو الغفور الرحيم ، ولكن عذابه هو العذاب الأليم ، فأين أكون من هذين ؟ وهل تتسع رحمته لمثلى ؟ إنه كريم يقبل التوب ، ويغفر الذنب ، ولكن أين غفرانه منى وأنا أشرد منه شراد البعير ؟ اسأليه عنى يا أماه أن يرد عنى كيد الشيطان ، فإنى أخجل من دعائه والابتهال إليه . خذينى إليك يا أماه ، وضميني إلى صدرك ، فلعلى أعود كما كنت

طفلا نقى الذيل طاهر النقيبة ، فقد استعبدتنى نفسى ، وأثقلتنى همومى . فأقبلت عليه أمه تمسح على رأسه فى حنان ورفق ، وتملأ وجهه بقبلاتها ، ثم قالت :

— خفّف عن نفسك يا ولدى ، فإن الدموع تغسل الذنوب ، والخوف من الله أول مراتب التوبة النصوح . ثم ابتسمت وأخذت تربّت كتفه وتقول : ولكنك يا بنى لا تكاد تعرى أفراس الصبا حتى تسرجها وتركض بها غير مبال ولا هيّاب ، ولا تكاد تحطّم كأساً من اللهو حتى يسبك لك الشيطان كاسات . إن قلبك يا بنى قلب مؤمن ، إذا تيقّظ كشف لك وجه الحق ، فدعه دائماً متيقظاً .

— ليتنى أستطيع يا أماه ! إن ابن إبليس تمنى على أبيه لعبة يلهو بها فلم يجد له اللعين سواى . إننى أفيق كما يفيق المحموم ثم أعود إلى الحمود . ويلتمع فى نفسى نور من الحق كما يلتمع السراج فى آخر الليل ثم يخبو . أرأيت هذا المجنون أبا رقية . . ؟ فصاح أبو رقية فى استنكار : لست مجنوناً ولكنى أشعر بالجنون أحياناً حينما أرانى مدفوعاً إلى حب أمثالك يا أبا العباس ، وإلى بذل ذات نفسى لدفع الشر عنهم .

— أتحبنى يا أبا رقية ؟

— نعم وأركب كل صعب للوصول إلى ما يرضيك .

ـ أتقول حقًّا أيها الأبله ؟

ـ لست بأبله لأنني لا أشرب إلا إذا ظمئت ، أما غيرى فيشرب وهو ريّان .

ـ وكثيراً ما صفروا لك لتشرب .

ـ خير لى أن أشرب مع الحمير من أن أشرب مع قرناء السوء .

ـ أما ذقت الخمر يا أبا رقية ؟

ـ ذقتها بعيني عند ما رأيت عربدة المخمورين .

ـ تبًّا لك من معتوه ، والله ما رأيت لك مثلا .

ـ إنك ترى كثيراً من أمثالى فى مجالس الشراب .

فابتسمت أم الوليد وأشارت إلى ابنها أن يكف ، ثم سألت : ما شأن هؤلاء القوم الذين جاءوا اليوم ؟ لقد أخبرتني صدوف بكل شيء .

ـ صدوف ؟ إنني لا أحب هذه الجارية يا أمي على جمالها وكمال أدبها . لا أدرى لماذا ، ولكنها نفرة أشعر بها كلما مددت إليها عيناً .

ـ إن صدوف من خير جواريك خَلقاً وخلقاً . ولقد شكت لى منذ أيام صدودك عنها ، وانصرافك إلى غيرها .

ـ إن الحب والبغض شيئان نحسهما ولا نعرف أسبابهما .

— هذا حق ، ولكن الكريم يجامل إذا لم يحب .

— بم أخبرتك صدوف ؟

— أخبرتني بكل ما قاله لك رسل هشام ، وبكل ما قلته لهم . إنها خدعة الصبي عن اللبن يا بني ، فلا تركن إليهم . إن هشاماً يريد أن يتخلّص منك ، فإياك أن تمكنه من مأربه ، وإن ولاية العهد لأمانة لله في يديك فمت دونها كريماً ، ولا تفرج عنها أصابعك . لقد مات أبوك بين سحري ونحري وهو ينظر إليك محزوناً مكموداً ويقول : الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبين ولدي ! فقد كانت ولاية العهد لك بعد أبيك يا بني ولكن عمك مسلمة أدخل على أبيك الشبهة ، وقد كنت صغيراً ، فحمله على أن يعهد بها إلى هشام على أن تكون لك من بعده ، والآن وقد استمرأ هشام مرعاها ، واستحلى أفاويقها ، يهم بأن يخلعك ليخص بها ابنه من بعده . إن ذلك أبعد إليه من السماكين ، وأنأى من الفرقدين . إن بقصر هشام أحابيل تنصب لك ، ومكايد تدبّر لهلاكك ، فكن منها على حذر ، وامش يا بني كمن يمشي في مسبعة لا يرد الطرف عن ناحية حتى يصوبه إلى أخرى ، وخير سلاح ترد به كيد أعدائك أن تتخلى عما أنت فيه من لهو ، فإنهم يجعلون التشهير بك ذريعة إلى نيل ما يؤملون .

— ليتنى أستطيع أن أتخلى .

— كن قوى العزم يا بنى ، وغالب نفسك بالصبر والجلد. ألا تزال تحن إلى سلمى ؟

— حنين النيب إلى إفالها . لقد قابلت أباها منذ أيام أمام باب الفراديس فسألته عن سلمى ، وتذللت له ، وألحفت فى المسألة ، فما كان منه إلا أن نأى بجانبه فى أنفة وكبرياء ، فأمسكت بذراعيه وقد اشتد بى الغيظ وقلت : سحقاً لك من رجل منخوب الفؤاد . الآن تردنى عنها ، وكأنى بلك وقد وليتُ الخلافة تتملقنى وتخطبنى لابنتك فلا أجيبك . فما كان منه إلا أن نتر ذراعيه من يدى وقال : إن امرأ يجعل كريمته عند مثلك لحقيق بأكثر مما قلت . فلم أملك إلا أن أجبهه بما يكره من شتائم ، وتركته مغضباً .

— لقد انقلبت الأوضاع يا بنى فى هذه الدولة ، واضطربت الموازين . ولقد عشت حتى أرى سعيد بن خالد يأنف من مصاهرة الوليد بن يزيد. كنت أزور اليوم أم عثمان زوج هشام ، فسمعت منها أن يزيد بن عنبسة يلح فى خطبة أختها سلمى ، وأن هشاماً يميل إلى تزويجه بها . فوثب الوليد كأنما انقضت عليه صاعقة ثم صاح : ويل للفاجر . يزيد بن عنبسة يخطب سلمى! إنه أقل من أن يشرف بنيل إحدى وصائفها . ألهذا جاء إلىّ

اليوم فى صورة الأمين الناصح ، وجعل من نفسه صنيعة لهشام ليشهّر بى ، ويملأ الآفاق بمذمّتى ؟

— أخشى أن يكون تزويجه بسلمى جزءاً من المكيدة التى تدبر لك .

— لو نال منها شعرة لرويت منه سيفى .

وبينما هما فى الحديث إذ سمعت ضجة فى القصر ، ودخل سبرة مذعوراً وهو يلهث ويقول : قدم يا مولاى خالد بن القعقاع رئيس شرطة هشام ، ومعه كثير من أعوانه ، فوثبوا على القصر وقبضوا على ابن سهيل وعياض وعبد الصمد ، وكبلوهم بالأغلال ، ثم ساقوهم إلى سجن الخلافة . وكان أبو رقية ينصت دهشاً ، وقد اتسعت حدقتاه حتى كادتا تملآن وجهه ، وتمتم بكلمات زادها الجنون إبهاماً . وسقط الوليد لهول الخبر ، ثم أخذ يئن أنين المجروح ويقول : أصدقائى ! أحبابى ! ندمائى ! اللهم أجرنى منه ! اللهم أجرنى منه !

أنا النذير لمسدى نعمة أبداً
إلى المقاريف ما لم يخبر الدخلا
إن أنت أكرمتهم ألفيتهم بَطِرا
وإن أهنتهم ألفيتهم ذللا

أتشمخون ومنـــا رأس نعمتكم ؟
ستعلمون إذا أبصرتم الدولا
انظر فإن أنت لم تقدر على مثل
لهم سوى الكلب ، فاضربه لهم مثلا

ثم وثب فجأة ، وأمر سبرة أن يدعو المغنين ، وانطلق من باب الحجرة كما ينطلق السهم ، وهو يصيح : إلى مطلع الفجر! إلى مطلع الفجر !

سجن وإطلاق

كان هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فى نحو الخمسين من عمره ، وسيم الوجه ، أبيض البشرة بادناً ، عريض الجبهة ، حسن اللحية ، يخضب بالسواد ، فى عينيه حول . وكان حازماً ذا رأى ودهاء ، من رآه رأى رجلا محشوًّا عقلا . وكان بخيلا جماعاً للأموال . وكان يجلس فى هذا الصباح بدار الخلافة ، وقد وقف أمامه كاتبه سالم أبو العلاء ، وجلس إلى يمينه ابناه مسلمة وسعيد ، وإلى يساره جمع من رجال بنى أمية ، منهم يزيد بن الوليد وإبراهيم المخزومى ويزيد بن عنبسة . وأخذ سالم يقرأ عليه ما حمله البريد من أخبار الأطراف ، وما بعث به الولاة

والقواد من رسائل ، وما ورد من العيون والجواسيس الذين كان يبثهم الأمويون فى أقطار الدولة .

وقرأ سالم أول ما قرأ رسالة من حسان النبطى ، يذكر فيها : أن خالد بن عبد الله القسرى ، عسف بأهل العراق ، وسلب أموالهم بالقهر ، حتى لقد بلغت غلته عشرين ألف ألف درهم . فزمجر هشام وصاح : بمثل هؤلاء الولاة تزول الدول ، وتنهار الممالك . والله لأردنّه إلى بغلته وطيلسانه الفيروزى ؟ اكتب إلى يوسف بن عمر عامل اليمن بولاية العراق ، ومره أن يسجن ابن النصرانية وعماله ، وأن يحتجز كل ما لهم من صامت وناطق . لن يشرب ماء الفرات بعد اليوم ، وأنا ابن عبد الملك . إن الدولة بولاتها ، فإذا فسدوا فسد فيها كل شىء . هل من حادث آخر يا أبا العلاء ؟

— وهذا يا أمير المؤمنين كتاب من خراسان بعث به عذافر ابن يزيد يقول فيه : إن خراسان أصبحت عشًّا للفتن ، ووكراً لشيعة بنى العباس ، ينشرون فيها دعوتهم ، ويبعثون منها رسلهم ، ويعدون فيها ما استطاعوا من قوة ، ويتلقون بالطاعة ما يأمر به محمد بن على بن العباس المقيم بالحميمة . وقد كتب عذافر يقول : إن سليمان بن كثير وبكير بن ماهان ، يعملان جاهدين فى خفية وحذر ، لدعوة الناس إلى بنى العباس ،

وصرفهم عن بنى أمية . ويقول : إن شاباً نشأ بأصفهان يكنى بأبى مسلم ، سيكون له شأن وخطر ، وإنه دولة فى شخص ، وجيش فى رجل ، وإنه ألد الخصام ، واسع الحيلة ، وإذا لم يقض عليه فى أول نشأته ، عظم أمره ، وأثارها شعواء لا تبقى ولا تذر .

— إن خراسان مكمن الداء فى هذه الدولة ، وهى حصن أعدائنا الناقمين علينا . وهذا بكير بن ماهان يعمل منذ أن وليت الخلافة على الانتقاض عليها ، وإيغار الصدور على ولاتها . أليس فى مملكتى رجل كريم العم والخال ، عربى الأرومة يوجر رمحه فى أحشاء هذا الكلب العقور ؟ . ويل للخلافة من نصرائها . إنها تتلهف إلى حجاج ثان يثبت ما اهتز من أركانها . ثم إنى حرت فى أمر محمد بن على هذا ، إنك حيثما قلبته لا تجد إلا زهداً وصلاحاً وانصرافاً إلى الله وتبتلا . إن اليد لترتعد إذا امتدت إليه بسوء ، وإن السيف ليتحطم فى غمدة قبل أن يسل فى وجهه . ولكنى أخشى أن يكون لابساً غير ثوبه ، وأن يكون سائراً وراء هذا الزهد خبثاً وخديعة وفتكاً . وكلما ذكرت خبر أبى معه تملكنى الخوف ، واعتصمت بالحذر . ذلك أن محمداً هذا ورد مع أبيه على أبى ، وكان بالمجلس قائف يلمح ما غاب عن الناس من أحكام القدر ، فلما انصرف التفت أبى

إلى القائف وسأله : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ولكنى أعرف من أمره واحدة . قال : وما هى ؟ قال : إن كان الفتى الذى معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراعنة يملكون الأرض ، ولا يناوئهم مناوئ إلا قتلوه . فالتفت إليه يزيد بن الوليد وقال :

ــ هون عليك يا أمير المؤمنين ، فذلك حديث خرافة ، والله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . وأنصار العباسيين بخراسان حفنة متخاذلة يكفى أن يسوقها أحد عبيدك بالسوط إلى طاعتك .

ــ لا تستهينوا بصغار الأمور يا بنى أمية ، فإنها إحدى علائم زوال الدول .

ــ إن الدولة بخير يا أمير المؤمنين ، وقد قمت بالأمر فيها ثمانى عشرة سنة فثبت دعائمها ، وشددت أركانها .

ــ أتستكثر علىّ ثمانى عشرة سنة فى الخلافة ؟ ويل لكم من بعدى ! والله ما تشبثت بأهدابها إلا لأصون ملكاً ضيعه أهله ، وعبث به فتيانه ، ولقد أعلم أن كثيراً منكم يعيبنى بأنى حفى بالخلافة ، أكاد أعض عليها بالنواجذ . نعم إننى عليها حريص ، وبها ضنين ، ولكنى أرى بعين بصيرتى مجداً يترنح ، وعرشاً تكاد تسقط قوائمه ، فأود لو امتدت حياتى ، وتنفس لى العمر حتى أعيد إلى الخلافة مجدها القديم . عجيب شأن الإنسان ،

لا يكاد يكتمل حتى يذبل ويدركه الموت ، وإن فى الحياه ومطالبها وغاياتها ما يضيق به عمره القصير الأمد . أليس من أعجب العجب أن تعيش السلحفاة ، وهى من أحقر المخلوقات ، مائتى عام ، وأن تضن الحياة على الإنسان المسكين بأكثر من ستين أو سبعين عاماً ؟ ولو أنه عاش عمر السلحفاة لصنع العجائب ، وأتى بالمعجزات . وماذا نعمل بالحياة إذا كنا نموت كلما أوشكنا أن نفهم حقيقتها ؟ ثم زفر زفرة طويلة ، واتجه إلى كاتبه سائلا :

— أعندك شىء آخر ؟

نعم يا أمير المؤمنين قبض الشرطة بالأمس على رجل بالقرب من الباب الشرقى كان بداره قيان وخمر وطرب ، وقد أحضرناه ومعه البربط الذى كان يعزف به .

ودخل الرجل فوثب هشام من مجلسه واختطف البربط من يده ، وهو يصيح مهدداً : والله لأكسرن هذا الطنبور على رأسك أيها الفاجر ؟ فبكى الرجل ، وأغرق فى البكاء ، فسأله هشام عن سبب بكائه . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أبكى من خوف الضرب ، وإنما الذى أبكانى أنك تهين البربط وتسميه طنبوراً .

ولم ينفع الرجل بكاؤه ولا توسله . فضرب وكسر بربطه

أو طنبوره على رأسه . وبعد انصرافه اتجه هشام إلى كاتبه يسأله عمن قبض عليهم بالأمس من ندماء الوليد ، وعما فعل بهم :

ـ قذفنا بهم فى سجن الظلام مكبّلين يا أمير المؤمنين .

ـ إن هؤلاء شياطين الشر وأس البلاء ، ولولاهم ما ركب الوليد رأسه ، ولا أطاع هوى نفسه . ولقد بعثت الزهرى إليه بالأمس لينصح له فلم يلق منه إلا نكراً ، وإن من الخيانة لعهد الله ورسوله أن تترك الخلافة فى يد هذا الفتى . يقولون إننى أريد أن أصرفها إلى ولدى مسلمة ، وأقسم إننى لو رأيت فى ابن أخى خيراً ما جال هذا الأمر لى بخاطر . إننى أريد أن أرقد فى قبرى هانئاً مستريحاً ، وأن أترك خلق الله فى رعاية من يخاف الله . ولو حال ابن أخى بينى وبين ما أحب لهذه الأمة ، لروّيت منه سيفى غير مستحقب إثماً . وبينما هو منساق فى حديثه ، إذ دخل الوليد وهو يمشى فى بخترة وعجب ، شامخ الأنف ، أصيد العنق ، فحيا أمير المؤمنين ثم جلس بجانبه حتى التصقت ركبته بركبته ، وكاد يزحمه فى مجلسه . ونظر إليه هشـــام نظرة المغيظ المحنق ، ثم أسرع فبسط له وجهه كأنما طافت برأسه فكرة خاطفة صرفته عن نيته . وشرع الوليد يقول :

— لقد بعث أمير المؤمنين إلى نفراً من جماعته بالأمس ليثلبوا عرضى ، ويحطوا ما رفع الله من كرامتى ، فى أثواب ناصحين مشفقين ، وما كنت لعمر الله لأصبر على هذا الضيم ، لولا أنهم رسل أمير المؤمنين . إن أبناء عبد شمس وهم سادة الجاهلية وخلفاء الإسلام ، أقوى شكيمة ، وأحمى أنوفاً من أن يطأطئوا رءوسهم لناصح متطفل . ثم ما هذا الذى فعلته يا أمير المؤمنين مما أقض مضجعك ، وجعلك تترك شئون الخلافة لتتفرغ لى ولأخدانى ؟ أأحدثت فى الدين حدثاً ؟ أم هدّمت من الخلافة ركناً ؟ أم جرّدت للفتنة جيشاً ؟ إننى أعيش فى قصرى بعيداً عنك وعن حاشيتك وبطانتك ، ولكنى لا أسلم من رِقبة جواسيسك وتطلع عيونك ، حتى أصبحت هدفاً لكل رام . ثم لم يكفك هذا فعملت كادحاً على الانتقام منى ، فقطعت عنى عطاءك لأذل لك وأستكين ، وأستجدى جدواك . وأقسم بمن خلق للحق ميزاناً ، وأعد للطاغين نيراناً ، إنى ما سررت بعطائك ، ولا حزنت لانقطاعه . فقد سبب الله لى من العهد ، وكتب لى من العمر ، وقسم لى من الرزق ، ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شىء منه دون مدته ، ولا صرفِ شىء منه عن مواقعه . ولعل من الخير لك يا أمير المؤمنين أن ترعى فى

أواصر القربى ، وأن تذكر أبى الذى آثرك بها على ولده .

فإن تلك قد ماللت القرب منى فسوف ترى مجانبتى وبعدى
وسوف تلوم نفسك إن بقينا وتبلو الناس والأحوال بعدى

إنى جئت اليوم يا أمير المؤمنين لا لأطلب شيئاً لنفسى ، وإنما جئت لأسألك فى فكاك أصحابى الذين ألقيت بهم فى السجن ، وليس لهم من جرم ، إلا أنهم بى حفيّون ، ولعهدى مخلصون ، وإذا كان لا بد لغضب أمير المؤمنين من متنفس فليصبه علىّ وحدى ، فأنا به أوسع صدراً ، وأكثر احتمالا .

فاربّد وجه هشام ، وانتفخت خياشيمه من الغضب ، وصاح فى وجهه :

— إنى لن أترك الخلافة بين زق وعود ، ولن أتركها لندمائك يبيعونها للأعداء . أما ما ذكرت من قطعى ما كنت أجريه فإنى أستغفر الله من سبق إجرائه عليك ، وأرجو أن يعفو الله عنى بعد أن تداركت الأمر ، وأسرعت بقطع مال كان ينفق فى غير وجهه . وأما ندماؤك فهم عندى جذور الشر ومعاول الفساد ، وهل زاد ابن سهيل لله أبوك عن أن يكون مغنياً زفّاناً ، قد بلغ فى السفه غايته ؟ وهو مع ذلك ليس بشر ممن تستصحبهم فى الأمور التى أكرم نفسى عن ذكرها . وهل عياض ابن مسلم إلا وسيط سوء بينى وبينك ، ومزوّر أخبار يستثيرك

بها على أهلك وقومك ؟ وهل عبد الصمد إلا رجل احتال للوصول إليك ليكون لك معلماً ومؤدباً ، ثم انقلب فاجراً معربداً ، وشيطاناً مغوياً ؟ إن سجن الظلام منذ أن بناه الروم فى عهودهم السحيقة لم تضم جدرانه ، ولم يظل سقفه ، أكثر إجراماً ، ولا أخبث أنفساً ، ولا أجرأ على الشر من ندمائك الملاعين . لن يفك لهم إسار ، ولن يروا نور الحياة ، ما دام فىّ نفس يتردد . وأقسم لولا صلة القربى التى ذكرتها ، ولولا أن يشمت الأعداء ببنى مروان ، لألحقتك بهم . يا حرَسىّ ، سر أمامنا إلى السجن لنرى الوليد أحباءه فلعله يرى فيهم عظة ومعتبراً .

— لن أذهب معك يا أمير المؤمنين ، فإنى أخشى أن ينقض علينا غضب من الله ونحن فى السجن .

— إن غضب الله لا ينقض إلا على الغاوين .

— إن كثيراً من الناس لا يعرفون أنفسهم .

— ولو عرفوها ما هزوا أعواد الخلافة باستهتارهم ، ولكفى الله المؤمنين شرهم .

— وأىّ شر فى مجالسة صديق وسماع لحن من الثقيل الأول؟

— زوال الإسلام يا فتى ، وذهاب ريح المسلمين . هلم إلى السجن لتمتع النظر بأصدقائك المخلصين .

فسار الوليد خلفه فى تثاقل واستكراه كأنما يقاد بالسلاسل ،



ووصل الخليفة والحاشية إلى السجن بعد قليل .

وهو سجن رومانى قديم نحت فى باطن الأرض ، ينزل إليه النازل بدرجات تبلغ الست والثلاثين ، وهو متسع الرقعة ، لا يزيد ارتفاعه عن قامة الرجل ، وقد قسم بالبناء حجرات صغيرة يقيم بها المسجونون ، وبه بئر عظيمة ، بعيدة الغور تسمى « بئر الموت » تلقى بها جثث من أنقذهم الموت من ويلات هذه الجحيم . وقد تراكمت به الأقذار ، حتى أصبحت أرضاً فوق أرضه ، واشتد به الظلام حين حرم ضوء الشمس ، وركدت به روائح العفن والقذر حين حرم نسمات الرياح . ولم يكن يفرق بينه وبين القبور إلا أن سكانه أحياء يشعرون فيتألمون ، وسكانها أموات لا يشعرون . ظلمة لا تسمع فيها إلا شكاة الشاكين ، ولا ترى فيها إلا أشباحاً هزيلة تروح وتجيء فى ضوء خافت من المشاعل تخفق فى اضطراب وضعف ، كما يخفق قلب الطائر الجريح أقصدته السهام ، وسجانون شداد غلاظ كأنهم زبانية السعير ، وأنات وزفرات تتلهف إلى قسوة الموت بعد أن يئست من رفق الحياة .

دخل هشام السجن وقد وضع يده على أنفه كراهية أن تصل إليه ريحه ، ومشى أمامه كبير السجن حتى وصل إلى حجرة ابن سهيل فرآه ملقى على الأرض فى مسح خلق ، والسوط

ينصب عليه من سجان عنيف صخرى القلب مفتول العضل، وهو يئن أنين المحتضر ، ويستغيث فلا يجد مغيثاً . فأسرع الوليد وأمسك بيد السجان ثم وكزه بمرفقه فى غضب ونكر ، حتى ابتعد عنه ، واتجه إلى هشام فقال : يا أمير المؤمنين اجعلنى مكانه ، أو مر هذا الجبار الأحمق أن يكف عنه . إن الموت يا أمير المؤمنين أروح له من هذا العذاب . فلوى عنه هشام وجهه ، وأشار إلى السجان أن يمضى فى عمله ، وجذب الوليد من كمه ، وسار وتبعته الحاشية فشهدوا من عذاب عياض وعبد الصمد ما تقشعر له الجلود . وكان الوليد حزيناً مطرقاً يذرف الدمع مدراراً ، وترسل أنفاسه حسرات إثر حسرات حتى إذا بلغوا إحدى حجرات السجن رأوا شيخاً فى الثمانين ، وقد طال شعره ، وامتدت أظفاره ، ولم يبق منه السجن إلا عينين ذاهلتين ، ونفساً قصيراً متلاحقاً ، وجسما كادت تبرز منه العظام . فسأل هشام كبير السجن عنه فقال :

— هذا يا أمير المؤمنين « مجاهد بن حبيب » كان من أصحاب « سعيد بن جبير » الذى خلع « الحجاج بن يوسف » وخرج عليه ، فلما تمكن الحجاج من سعيد وقبض على أصحابه كان هذا منهم ، فألقى فى هذا السجن ونسى ذكره ، فبقى هنا إلى اليوم.

— هذا كان فى سنة أربع وتسعين !

— نعم يا أمير المؤمنين .

— ونحن الآن فى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، أبقى الرجل منسياً فى هذا السجن تسعاً وعشرين سنة ؟ .

— نعم يا أمير المؤمنين .

وقرب الخليفة من الشيخ وصاح فى أذنه : قم أيها الشيخ .

فأجاب فى صوت خافت :

— وهل أبقى فىّ السجن والهرم ساقين أقف عليهما ؟

— خبرنا بحديثك .

— نسيته .

— من أنت ؟

— كنت رجلا فيما مضى ، ولكنى أصبحت اليوم جثة بها نفس يطيل فى عذابها .

— أتحب أن نطلق سراحك ؟

— ماتت فىّ الرغبة والرهبة منذ زمن بعيد ، فأصبحت لا أريد ولا أخشى .

— أنا هشام بن عبد الملك الخليفة .

— « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ » صدق الله العظيم .

فاتجه هشام إلى كبير السجن وقال : أطلقوا الرجل . ثم التفت إلى كاتبه وأمره أن يمنحه ما يكفيه فى أيامه الباقية . وما كاد يخرج من السجن حتى رأى خادمه يعقوب يقبل إليه مسرعاً ، وقد تملكه الاضطراب والفزع ، وهو يصيح :

ـ مولاى مسلمة يا أمير المؤمنين ! !

ـ ما شأنه ؟

ـ اختطفه اللصوص يا أمير المؤمنين ! فبهت هشام وصرخ :

ـ اللصوص ؟ أى لصوص ويلك ؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين اختطفه اللصوص .

ـ كيف ، ثكلتك أمك ؟

ـ لقد خرج فى هذا الصباح كعادته على برذونة الطُّخارى ، وصحبته إلى الغوطة ، حتى إذا عزمنا على الرجوع بدا لنا من بعد رجل يضرب امرأة بسوط ، لا تأخذه بها رحمة ، وهى تصيح وتستغيث . فأشفق سيدى على المرأة ، وجرى نحوها لينقذها وجريت معه ، ثم نزل عن برذونه ، وتقدم نحو الرجل شاهراً سيفه ، وما كاد يفعل حتى خرج علينا كمين من الخلف فانقض علينا رجاله ، وقبضوا على أيدينا فلم نستطع دفعاً ، ثم شدوا وثاقنا فلم نستطع حراكاً ، ثم جاءوا فربطوا على فى

وفم سيدى ، وحملوه على جواد لهم ، وانطلقوا به فى سرعة الريح العاصفة ، وبقيت مكتوفاً مكموماً حتى عثر بى أحد الأعراب فحل وثاقى فأسرعت إليك يا أمير المؤمنين لتجد إلى إنقاذه سبيلا .

— ويل لهم ! يختطفون ابنى فى حاضرة ملكى وبين سمع أعوانى وبصرهم ! أى طريق سلكوا لا أمّ لك ؟

— لا أدرى يا أمير المؤمنين ، فقد أثارت خيولهم غباراً حجب عنى طريقهم .

— صفهم لى .

— كانوا يلبسون ثياب الأعراب ولكنهم لم يكونوا من الأعراب ، وقد دس أحدهم هذه الورقة فى يدى وهو يعقد وثاقى .

— هاتها ويلك ! فناوله يعقوب الورقة ، فأسرع إلى قراءتها وكان فيها :

إن لم تطلق عبد الصمد بن عبد الأعلى وابن سهيل وابن مسلم الليلة ذبحنا ابنك كما تذبح الشاة ، وقذفنا به فى فناء قصرك . إننا جادون غير هازلين ، وبيننا وبينك غروب الشمس فإن أطلقتهم نام ابنك الليلة على فراشه ، وإلا فقد أنذرناك .

صعق هشام بعد أن قرأ الورقة ، وأخذت يداه ترتعشان ،

ورمى الوليد بنظرة كادت تسحقه ، وصاح بكبير السجن . أطلق الكفرة الفجرة أصحاب الوليد ، وسوف يكون لى ولهم شأن ، فإن للعذاب ألواناً غير السجون ، وسيعلم الأنذال ما ينتظرهم بعد حين .

هجر ولقاء

ترك الوليد هشاماً وهو يعجب لتصاريف القدر ، ويفكر فى أمر الذين جرءوا على ابن الخليفة فاختطفوه فى النهار المبصر ، كما تختطف السلع أو كما تطر الجيوب . ثم طاف بخاطره أن هؤلاء القوم إنما كانوا يعملون لأجله ، ويحتطبون فى حبله ، ويناصرونه على أعدائه ، وأنهم ما أنقذوا ندماءه من براثن هشام إلا لحبهم إياه وبغضهم الخليفة . من يكون هؤلاء يا ترى؟ ومن الذى دفعهم إلى هذه الفعلة الجريئة ؟ ومن هو ذاك الذى أمدّهم بالمال ، ورسم لهم تلك الخطة المحكمة ، وذلك التدبير الحاذق؟ أسئلة لم يستطع الإجابة عنها بعد أن فكر طويلا ، وأكدّ ذهنه طويلا ، فسار إلى قصره حتى بلغه فكان أول من قابله أبو رقية المعتوه بوجهه الأبله ، وفمه المفتوح الذى لا ينقطع منه سيلان الريال ، فقال الوليد :

— كيف حال الدنيا اليوم يا أبا رقية .

— الدنيا بخير لأنها تجرى على نمط مطرد ، وإنما الناس هم الذين يتغيرون ، ولو عاش الناس عيشة البهائم لرأوا أن للدنيا صورة واحدة جميلة تتكرر على مر الزمان . وإذا قلنا لهم : عيشوا عيشة البهائم قالوا : إننا مجانين . إن الإنسان هو الذى يشقى نفسه فى هذه الدنيا بمطامعه وبعد مطالبه وضغنه على كل من يزاحمه فى الحياة ، أو يسبقه إلى لقيماتها . وكلما نال منها نصيباً زاد طمعه فلون الدنيا بألوان نفسه ، فهو يرى فيها خوفاً وحقداً وخداعاً وطمعاً واغتصاباً ، ولو حقق لعلم أن هذه الألوان البشعة إنما هى مرائى نفسه وصورها .

— مرحى أبا رقية . لقد أصبحت حكيماً بصيراً بالحياة بعد أن عمى عنها العقلاء .

فضحك أبو رقية ضحكة أشبه بصراخ الأطفال وقال :

— وأين العقلاء أيها الأمير ؟ إنى أخشى أن تعدنى منهم ، أليس عجيباً أن العقل الذى يعرف الأشياء يعجز عن أن يعرف نفسه . وأن الناس يحصرون المجانين فيمن يرجمهم الصبيان بالأحجار ، ولو علموا لرأوا أن الظالم والقاتل والمدمن والمبذر والشحيح والمزهو بنفسه وكثيراً من أنواع الناس ، لا يعدون فى صفوف العقلاء .

ــ هل تكره الظلم يا أبا رقية ؟

ــ أكرهه وأدفع شره بنفسى وبغيرى . ثم رفع عينيه الذاهلتين إلى الوليد وقال :

ــ هل زرت الخليفة اليوم ؟

ــ نعم ، هل ذكرته حينما ذكرت الظلم والشر ؟

ــ لا . ولكن نبئنى أوصلت إليه رسالة من أحد ؟

فدهش الوليد وقبض بشدة على ذراعى أبى رقية الرخوتين وقال :

ــ من أنبأك بهذا أيها الأحمق ؟ فابتسم أبو رقية ابتسامة الاطمئنان واليقين ، وقال :

ــ الحمد لله لقد أفلح التدبير . وماذا فعل هشام ؟

ــ أطلق سراح المسجونين . ومن أين لك علم كل هذا ؟

ــ كان ذلك يسيراً على ، فإن الخليفة حينما أرسل أعوانه إلى القصر فقبضوا على أصدقائك وقذفوا بهم فى السجن ، علمت أن كل ذلك للنكاية بك والإساءة إليك ، فذهبت باكياً إلى أمك فنفضت إليها الخبر ، فقالت : وماذا أصنع فى الخليفة ؟ فقلت : تعطينى مائتى دينار . فابتسمت فى حزن وأسى ، وقالت : ترشو بهما الخليفة ؟ فقلت : لا ، بل أعطيهما « خارجة القيسى » شيخ لصوص الشام ، فقالت : وما شأنك

باللصوص ؟ قلت : إذا قسا الحاكم تحكم اللصوص . فتنهدت طويلا ثم قذفت إلى بثمانية أكياس ، فأسرعت إلى خارجة ورسمت له طريق العمل ، ودعوت له بالتوفيق .

— لقد أجاب الله دعاءك يا أخا « هبنقة » . ثم صاح : أين أشعب ؟ فجاء إليه يحجل فى مشيته كما يحجل القرد راعته عصا صاحبه ، ثم رفع صوته محاكياً صوت الديك ، ووضع رأسه على الأرض ورجليه إلى الأعلى ، ثم انقلب فعاد كما كان، وقال :

— هل يريد مولاى الأمير أن يعطينى شيئاً ؟

— أعطيك هذا ، ثم قنعه بسوط كان فى يده ، فأخذ يحاكى صوت الكلب حينما يقذف بحجر ، فرمى إليه الوليد ديناراً فتلقفه بفمه فى مهارة بارعة ثم قال :

— الآن نستطيع أن نتحدث ، ماذا يريد مولاى ؟

— تعرف ما كان من أمر ابن سهيل وعياض وعبدالصمد ، فقد اعتقلهم الخليفة وعذبهم عذاباً شديداً ، ثم أجبر مكرهاً على فك عقالهم ، وهم الآن فى دورهم فاذهب إليهم وأحضرهم إلى الساعة .

— أتريد أن أحل محلهم فى سجن الظلام ؟ إن كل واحد

منهم الآن محاط بجواسيس الخليفة ، فهل تظنني أبا رقية حتى تقذف بي في هذه المهالك ؟

— أتريد أن تعيش في قصري منعماً مترفاً دون أن تتعرض لخوف ؟ إن الغنم بالغرم يا ابن جبير .

— لقد لقنتني أمي ألا أحمل غرماً ، وألا أتعفف عن غنم .

فأخرج الوليد من كمه كيساً وهزه فسمعت وسوسة الدنانير ، وقال : وما تقول في هذا ؟

— الآن أذهب ولعن الله أمي . ثم أخذ يمط وجهه ويطوّله حتى بلغ وسط صدره وأصبح لا يعرفه من كان يعرفه ، ثم وثب فاختطف الكيس من يد الوليد وانطلق كما ينطلق السهم عن القوس .

وبعد قليل أقبل ندماء الوليد ضعفى يتوكئون حتى كأنهم خرجوا من معركة أثخنهم جراحها ، وما كاد يراهم الوليد حتى انقض عليهم معانقاً مقبلا ، ثم صاح : علي بالمغنين . علي بعمر الوادي وأصحابه . هذه ليلة الليالي وواحدة الدهر ؟ أوقدوا الشموع جميعاً ، سننسى في هذه الليلة الحياة ، وسننسى الآلام ، وسننسى هشاماً . فأسرع المغنون إلى البهو ودخل بعدهم نحو الأربعين من الجواري والقيان ، بين روميات وفارسيات وتركيات في الملابس الزاهية والحلي الباهر . وكان عمر الوادي

قد لقنهن أبياتاً للوليد فى سلمى ، فأخذن ينشدن معاً بصوت ساحر بين رنين العيدان ونقر الدفوف :

خــبرونى أن سلمى خرجت يوم المصلى
فإذا طـــير مليح فوق غصن يتفلى
قلت : هل تعرف سلمى؟ قال : ها . ثم تدلى
قلت : هل أبصرت سلمى؟ قال : لا . ثم تولى .

ولعب الطرب بالرءوس ، وظفر شره العيون بجمال الوجوه فكان يلتهمها التهاماً . وصاح زنتم : لنرقص رقصة الفرس ، لنرقص الفنزج ولننشد معاً :

نجا عياض وابن وهب قدنجا ونال مولانا الوليد ما رجا
هلم نرقص فى هواه الفنزجا

فأخذ كل رجل بذراع فتاة ، وتمايلت الرءوس ، وماست الخصور ، وسايرت الأقدام دقات الأنغام ، واحمرت الوجنات ، ولعبت العيون ، وانطلقت الضحكات ، وطغى المرح فأطلق لنفسه العنان ، وطار العقل وغادر المكان ، وكان صياح ، وكان هرج ، وكان نزق . وبينما القوم فى لهوهم إذ علا عند مدخل البهو صوت فيه رصانة ، وفيه نبل ، فنظر القوم مبهوتين فإذا أم الوليد فى جلال سمتها ، واعتدال قوامها ، ترسل نظرات ثاقبة ملؤها الغيظ والغضب ، فأطرقوا فى خشية وخجل . فقالت :

— ما هذا يا بنى إن جواسيس هشام تحيط بقصرى من كل جانب ، وقد كنت أرضى كارهة عن الغناء والطرب ، أما رقصات العلوج وضجيجهم ففوق احتمالى وأكثر مما تسبغه طاقتى .

وما سمعها القوم حتى تسللوا لواذاً مطرقين وجلين .

وبقى الوليد وأمه وأبو رقية فالتفتت الأم إلى الوليد وقالت : يا بنى إن من يريد عرشاً لا يصل إليه من هذه الطريق ، وإن هشاماً يقعد لك كل مرصد ، ويسجل كل ما تأتى وما تذر ، ليثبت لرجال بنى أمية أنك لا تصلح للخلافة ، وأن الحقيق بها ابنه مسلمة . ولقد غشى حبى لك على سمعى وبصرى ، فأغضيت عن شىء من اللهو ، ولكنى أراك تستمرئ ما أنت فيه ، وتجاوز الحد فيما لا يليق بك . فبكى الوليد بكاء الطفل واحتضن أمه ، وسرت العدوى إلى أبى رقية فسالت دموعه مدراراً . وقال الوليد . بين النحيب والنشيج :

— صفحك يا أمى . إنى ولـــد عاق حقـًا . ولكن ماذا أعمل وخيال سلمى يعاودنى فى كل لحظة فيؤجج أشجانى ، ويثير أحزانى ؟ وكلما حاولت نسيانه والانصراف عنه وثب أمامى ساحراً فتاناً ، يعبس مرة ، ويبسم أخرى ، ويغرس فىَّ الأمل حيناً ، واليأس أحياناً ، حتى كاد يسوقنى إلى الجنون .

إننى يا أمى أحاول نسيانه بهذا اللهو ، وأجهد فى طرده عنى بضرب الدفوف وعزف المزاهر ، إننى شقى يا أماه . جاه ومال وسلطان ودولة ، ولكن أين السعادة بين كل هؤلاء ؟ لا أرى لها أثراً ولا ظلا من أثر . إن صلاحى فى سلمى ، وحياتى ومماتى لها ، فلو أنى نلتها أو فزت بكلمة منها لكنت أتقى الأتقياء ، وخير الأصفياء .

وهنا تلعثم أبو رقية والدموع لا تزال تنهمر من عينيه وقال :

— إذا كان فى قرب سلمى صلاحك فلم لا تتزوجها ؟

فابتدره الوليد قائلا : ألم تعلم بما كان من أبيها أيها المجنون ؟ ألم تعلم أنى أطرد دونها كما تطرد غرائب الإبل عن المناهل ، وأنها أبعد إلى من مناط الثريا وأنأى من آمال الحمقى ؟

— هون عليك أبا العباس فكل شىء ينال إذا صبرت له حتى آمال الحمقى .

— وكيف ذلك يا رضيع « الجرنفش » ؟

— إنى سأفكر بعقلى وأدبر لك لقاءها .

— لقد يئس العقلاء من اجتذابها إلىَّ فلم يبق إلا المجانين!

— إن الناس يتَّقون العقلاء لأنهم يعرفون طرق تفكيرهم فيتحصنون منهم ، أما المجانين فلهم أسلوب من الحيل لا يهتدى

إليه العقلاء . سأذهب إليها غداً وستراها بعد غد .

فضحك الوليد ضحك اليائس ، وأخذ يسخر من أبى رقية ويهزأ به ، وأبو رقية مطرق لا ينبس . ثم طلب الوليد المصحف وشرع يقرأ حتى إذا انتصف الليل ذهب إلى فراشه .

وفى الصباح خرج أبو رقية من القصر ، ولما ابتعد عنه كثيراً وقرب من قصر سعيد بن خالد ، أخذ يهارش الصبيان ويغريهم بإيذائه ، حتى إذا وصل إلى القصر شرعوا يرجمونه بالحجارة ، وقد كثر عددهم ، فطفق يصيح ويستغيث ، وقد شج رأسه ، فخرج العبيد فذادوا عنه الصبيان وأدخلوه القصر ، ولكنه استمر فى عويله ، وأخذ يرفع الصوت بشتم الصبيان والدعاء عليهم . فأطلت عليه سلمى مع بعض جواريها وقالت :

— ماذا أصابك يا أبا رقية ؟

— كل ما أصابنى بسببك يا سيدتى .

— بسببى ؟ وهل أنا التى أغرت بك هؤلاء الشياطين ؟

— نعم أنت . رأيت لك رؤيا بالأمس فأعجبتنى ، فجئت لأبشرك بها ، فقابلنى هؤلاء الأبالسة فشجوا رأسى . ألست أنت السبب فى كل هذا ؟ فضحكت سلمى ضحكة فاتنة لو سمعها الوليد لباع بها ملك الشام والعراق ، ، ثم أدركتها شفقة على الرجل ، ورثاء لما أصابه ، وعطف يحسه

العاقل على المجانين ، فدعته إلى حجرتها وقالت فى دلال وعجب :

— حدثنى بحديث هذه الرؤيا يا أبا رقية .

— إنها رؤيا جميلة جدًّا لم أخبر بها أحداً ، وأنا واثق من أنها ستقع ، لأنى لم أر شيئاً فى المنام إلا تحقق كما رأيته : رأيت مرة ليزيد بن عبد الملك أن حبيبته « حبابة » ستعود إليه ، وقد كان يئس من لقائها ، فعادت إليه بعد ثلاثة أيام ، ورأيت لمسلمة بن عبد الملك قبل سفره إلى العراق أنه سيقود جيشاً لمحاربة يزيد بن المهلب ، وأنه سيقتله ، فلم يمض شهر حتى تحققت الرؤيا . نعم يا سيدتى إن العقلاء يرون الأشياء فى النهار حينما تجىء ، ونراها نحن فى الليل قبل أن تجىء .

فأغرقت سلمى فى الضحك وقالت :

— أسرع أبا رقية وخبِّرنى بهذه الرؤيا .

— لا بد أن آخذ البشرى أولا .

— لك عشرة دنانير .

— لا يا سيدتى . وماذا أصنع بالدنانير ؟ إننى أريد منك شيئاً أعظم من هذا ، بشرا أن تقسمى لى بجدك عثمان بن عفان أن تعطينى ما أطلبه منك .

— أقسمت بعثمان فماذا تطلب ؟

ــ أطلب طبقاً من هريسة .

فأغرقت فى الضحك ، وأعجبها ما فى الرجل من بلاهة وظرف ، وأشارت إلى الجوارى أن يغادرن الحجرة ، واتجهت إليه قائلة :

ــ لك ما تطلب يا أبا رقية فاقصص رؤياك .

ــ رأيت يا سيدتى كأننى فى ميدان قصر الخلافة ، وإذا بك أنت نفسك يا سيدتى تجرين فى ذعر ووهل ، ووراءك أسد مفترس ما رأيت فى حياتى أشد منه شراسة وأنكر زئيراً ، وكنت تصيحين وتستجيرين . فاجتمع الناس وملئوا جوانب الميدان ، فأعدت النظر إلى الأسد ، فإذا هو ينقلب رجلا أزرق العينين أحمر الوجه ، غزير شعر الحاجبين أصفر شعر اللحية كثها ، عظيم الشفتين ، بخده الأيسر أثر ضربة سيف كاد يشوه وجهه.

فنظرت إليه سلمى فى ذهول وقالت :

ــ أنا أعرف هذا الرجل .

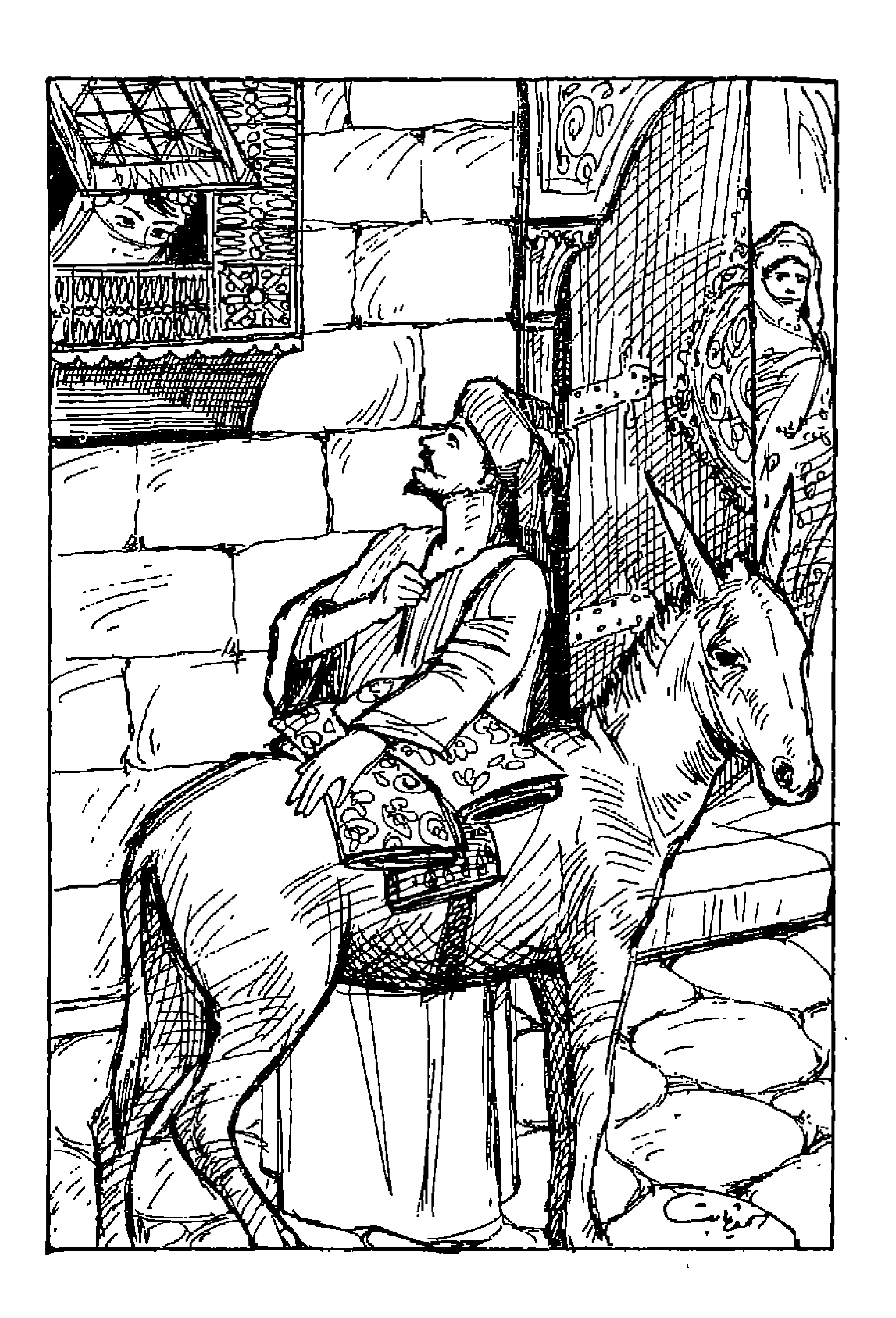
ــ أنا لا أعرفه يا مولاتى ، ولكنى فى النوم سمعت الناس يصيحون . ابن عنبسة ، ولا أدرى من هو .

ــ نعم هو ابن عنبسة ، يزيد بن عنبسة ، إنه خطبنى من أبى .

ــ هذا لم يكن فى منامى ، ولا شأن لى بالرجل ولا بخطبته .

انقلب الأسد رجلا على الوصف الذى ذكرت كأنى أراه أمامى الساعة ، وكان فى يده خنجر همّ أن يطعنك به ، فصحت وحاولت التخلص من يديه ، وبينما أنت كذلك إذ أقبل رجل يشق صفوف الناس ، وسيفه فى يده ، وعلى وجهه الشهامة والبطولة وغضب الكريم لعرضه وشرفه ، فصاح الناس : الوليد أمير المؤمنين . الخليفة . فرجعت البصر فإذا هو مولاى الوليد ابن يزيد ، فسألت رجلا بجانبى : أأصبح الوليد خليفة ؟ فأجاب نعم أصبح خليفة أيها الأبله ، ألم تعلم أن هشاماً مات منذ سنوات ، وأنه الآن خليفة المسلمين ؟ فسكت وترقبت فإذا الوليد يهجم بسيفه فيشطر الرجل الذى أراد طعنك بخنجره شطرين ، ويأخذ بذراعك فى رفق وحنان ، ثم يمشى بك حتى يبلغ دار الخلافة بين صياح الصائحين ، والدعاء لك ولزوجك أمير المؤمنين .

كانت سلمى ذاهلة واجمة ، كأنها تسبح فى حلم آخر ، وكانت بفطرتها جمة المطامع بعيدة الآمال طموحاً ، وكانت تبغض ابن عنبسة لثقل فيه ودمامة ، ولأنه جاوز سن الشباب ، فلما تعرّض لخطبتها طلبت من أبيها أن يسوّف الرجل ويمهله ، لأن قلبها كان يهفو إلى الوليد على الرغم مما عرف عنه ، وعلى الرغم من إباء هشام وتحريضه أباها ألا يزوجها إياه . كانت



تحب الوليد وتخاف رعونته ، وكان مما يزهدها فيه ويخفف من ثورة حبها له سعى هشام الحثيث لخلعه من ولاية العهد ، وإطباق أكثر الناس على أنه لا يصلح للخلافة ، بعد أن أرخى لنفسه العنان . وإذا ضاعت الخلافة من الرجل لم يبق منه إلا شبح هزيل من بنى الإنسان لا جاه له ولا غناء فيه . ولكن الرؤيا التى قصَّها عليها أبو رقية محت من نفسها كل شك ، وأجَّجت خامد الآمال . فالتفتت إليه وقالت :

— وبم تعبِّر هذه الرؤيا ؟

— إنها لا تحتاج إلى تعبير ، إنها كفلق الصبح .

— وهل أصبح حقًّا فى يوم من الأيام زوجة الخليفة ؟

— ذلك بعد أن آكل الهريسة . فضحكت سلمى طويلا ثم قالت :

— ولكنى لا أحب الوليد ، وقد خطبنى من أبى فرد طلبه فى عنف وإباء ، فكيف أتزوجه ؟ لا يا أبا رقية إنك واهم ، فلعلك رأيت فى منامك فتاة أخرى تشبهنى .

— لم أرك وحدى ، إن الناس الذين كانوا فى ميدان الخلافة رأوك معى ، وقالوا : هذه سلمى بنت سعيد . على أنى أعرف أن الوليد بك صب مفتون ، وأنه إنما يعبث ويلهو لينسى حبك بعد أن أيأسه أبوك من قربك ، فلو أنه ظفر بك لرأى فى حبك

كل ما يحجبه عن اللهو والمرح . ثم إنى لمحت منذ أيام أن جارية « عاتكة » بنت العباس بن الوليد قد أكثرت التردد على قصر حبابة ، وأكثرت من الخلوة بالوليد ، وعلمت من الجوارى أن عاتكة مفتونة بحب الوليد وأنها تحاول أن تجتذب مودته بعد أن يئس منك . ولست أبالى أتزوج عاتكة أم أتزوج غيرها ، ولكنى لا أحب عاتكة لأنى ائتمنتها مرة على حجر قذفنى به الصبيان فضيعته .

ثارت الغيرة فى نفس سلمى ، وتيقّظت فيها غريزة المرأة فقالت :

ــ وماذا أعمل للوليد وقد رأيت أنه محجوب عنى وعن قصرى ؟ ثم ماذا أصنع وقد أقسم أبى ألا يزوّجنى إياه ؟

ــ إنه يريد أن يطفىء نار غرامه برؤيتك والحديث إليك ، أما زواجه بك فقد كتب فى سجل القدر ، ولن تستطيع يمين أبيك أن تمحو ما كتبه القدر .

ــ وكيف أراه وعلىّ ألف عين من أهلى ؟

ــ ذلك هيّن يسير ، إنه سيأتى إلى القصر غداً متنكراً فى هيئة رجل يبيع ثياباً ، ومعه حماره وفوقه بضاعته ، ولا تثريب عليك فى شراء ثياب من بائع ثياب . فصاحت فى خوف ممتزج بالفرح :

ــ أنت أعقل مجنون رأيته يا أبا رقية .

— وأنت أجن عاقلة رأيتها . عمى صباحاً ، أرجو ألا ألتقى بالصبيان فى عودتى . ثم انفتل من حولها فكأنما ابتلعته الأرض .

وعاد أبو رقية إلى القصر فالتقى به الوليد وأمه فحدثهما بكل ما حاك من حيلة وتدبير ، ودهش الوليد ، واستبد به الفرح ، وانكب على أبى رقية يقبله . وأرسل فاشترى أثواباً من جميع الأنواع ، وما جاء الصباح حتى غير من زيه وهيئته على نحو ما يرتدى باعة الملابس ، فلبس عمامة صفراء وسروالا فضفاضاً وصداراً من الصوف الخشن ، ولف حول رأسه شملة من الحرير الأحمر ، وخرج من القصر بعد أن وضع الأثواب فوق حمار هزيل ، حتى إذا بلغ قصر سعيد نادى بأعلى صوته :

أثواب وألوان ، للعذارى الحسان . عندى من الحرير ، ما ليس له نظير ، حرير صنعانى ، وحرير تنّيسى ، وخز فارسى . ذهب بذهب ، وعجب من عجب . فسمعته سلمى وأمرت إحدى جواريها أن تدعوه ، فحمل بعض بضاعته ودخل القصر ، فقادته الجارية إلى حجرة سلمى ، فبهره حسنها ، وكاد يفضحه جمالها ، وأخذ يتلعثم ويتمتم ، وهم بأن يمد إليها يده ، فنظرت إليه عابسة ، وأشارت إلى جاريتها بالخروج ، فلما خرجت رمى بالأثواب ، وانكب على يديها يلتهمها لثما وتقبيلا ، وجعل يئن ويقول :

ــ ارحميني يا حبيبتي . أنت حياة روحي ، وريحانة نفسي ، أنت الهواء الذي أتنسم ، والأمل الذي أناغي ، والسعادة التي أرجو وإليها أصبو . نظرة واحدة تكفيني ، وبسمة تقنعني ، وكلمة تفتح أمامي باب الرجاء .

ــ قم أبا العباس في مثل ما بك ، وحبي لك صدًى لخفقات قلبك ، ولكن أبي والخليفة يحولان دون هذا الحب .

ــ إن الحب لا يعرف الحوائل ، إنه ينفذ إلى ما لا ينفذ إليه الهواء ، ويحلق فوق ما لا يصل إليه جناح ، فإذا أحببتني فلا الخليفة ولا أبوك ولا الدنيا كلها بمستطيعة أن تقف بيننا .

ــ أحبك . فوثب عليها يقبل وجهها في شغف وفتون . فابتعدت عنه قليلا ثم قالت :

ــ اهدأ يا حبيبي فإني لست لك بزوجة ، وخير لنا أن نصبر حتى يصل الله بين حبلينا ، ويقرب منا ما بعد .

ــ إني سأكون خليفة ، وسأنعم بزواجك .

ــ هذا لاشك فيه .

ــ ولن تتزوجي ابن عنبسة .

ــ لن أتزوج به .

ــ وكيف أظفر بقربك قبل أن يتم زواجنا ؟

ــ تبيع أثواباً كل أسبوع ، وتأتي إلينا بخمارك الناحل

الأعجف . ثم قامت كأنها تدعوه إلى الانصراف ، فوقف يودعها طويلا ، فلما خرج وضع الأثواب على حماره ، وهو يكاد يطير من الفرح ، وأخذ يضرب الحمار بعصاه ويصيح :

أثواب وألوان ، للعذارى الحسان !

نار ورماد

كانت دولة بنى أمية عربية النزعة ، شديدة التعصب لكل ما هو عربى ، تنظر إلى الأعاجم فى تيه وتعاظم ، وتحول بينهم وبين مناصب الدولة ومراتبها . ثم اشتط بعض الأمويين وغلا فى إحياء نزعات الجاهلية ، ونبش ما دفن من أحقاد القبائل التى جهد الإسلام فى إماتتها ، واجتثاث أصولها . فكان الخلفاء يؤثرون بعض القبائل بالمودة والعطاء والتجاوز عن عدوانهم ، وكان كل وال من ولاتهم يختص قبيلته بالبذل والمحاباة . فمرة تكون المحاباة لليمانية ، ومرة تكون للمضرية . وكان الناس يشعرون بكل هذا فيطرقون واجمين ، ويسكتون وجلين ، حينما كانت الخلافة فى عنفوانها ، والدولة فى شبابها ، والسيف مصلتاً فوق الرءوس ، والولاة كلهم من طينة الحجاج

ابن يوسف الذى كان يقول : من قال برأسه هكذا ، قلنا له بالسيف هكذا ! فلما ضعفت الدولة بعد موت الوليد ابن عبد الملك ، تطلّعت رءوس من الفرس كانت مدفونة تحت أطباق الخوف ، ونطقت أفواه من بنى العباس كان يسكتها الذعر والحذر . وامتدّ الزمان بدولة بنى أمية فزاد ضعفها باستنامة رجالها إلى النعيم ، ففقدوا رجولتهم ، وتسلّبوا من خصائص عروبتهم . فكان ضعفهم قوة لأعدائهم ، وتراخى حبلهم شدة وبأساً للخارجين عليهم . لهذا قوى أمر بنى العباس بمعاونة الفرس فى أواخر عهد هشام ، وتجمّع الناس حول دعاتهم بخراسان ، وتكوّنت فى أكثر أقطار الدولة جماعات من أنصارهم ، كانوا جميعاً يعملون سرًّا ، ويعدون العدة فى الخفاء ، وينتظرون الفرصة للانتقاض على الدولة وثل عرشها .

وكان بدمشق كثير من المحتطبين فى حبل العباسيين بين فرس وعرب ، وهؤلاء كانوا يبعثون بأخبار الخلافة وأسرارها إلى الزعماء بخراسان ، ويتلقون أوامرهم وإشاراتهم . وكانوا ينبثون بين الناس فيشيعون بينهم مساوئ الخلافة ، وهفوات فتيان بنى أمية ، بأسلوب شيطانى عجيب لا يلصق بهم تهمة ، ولا يدع لسامعيهم شكًّا فى أنهم أمناء مخلصون للدولة ، حريصون على بلوغها ما ينبغى لها من عظمة ومجد . يبدأ الرجل

منهم فخوراً بمكانة الخلافة وفضل رجالها الأولين ، وقوادها السالفين ، وأنها رفعت راية الإسلام ، ونشرت كلمة التوحيد فى كل مكان ، ثم يقول فى رنة حزن وبصوت تكاد تخنقه الغيرة ، وتقلبه الحمية بكاء : هدى الله خلفاءنا السداد ، وألهم فتيانهم التوفيق ! أكان يفعل هشام كذا لو كان عمر بن عبد العزيز حيًّا ؟ وهل كان يفعل الوليد كذا لو كان عبد الملك ابن مروان حيًّا ؟ ثم يزفر زفرة طويلة ويرفع عينيه إلى السماء داعياً للإسلام والمسلمين . هكذا كانت تعمل هذه الفئة الثائرة . ومن أخاليق هؤلاء وأكاذيبهم امتلأت كتب الأدب والتاريخ بكثير من مثالب الأمويين . وكان بين هذه الطائفة أشخاص اندسوا فى قصور الأمويين ليكونوا عليهم عيوناً ، ولينقلوا أسرارهم إلى أعدائهم .

وفى إحدى ليالى شهر رجب سنة أربع وعشرين ومائة وصل من دمشق إلى الكوفة إسماعيل بن يسار رسولا من الشام من قبل محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فنزل بدار بكير بن ماهان وكان من كبار أنصار العباسيين ، وأخبره بما قدم إلى الكوفة بسببه ، فسهّل له بكير لقاء سليمان بن كثير الحرانى زعيم جماعتهم ومالك بن الهيثم ، واتفقوا على زيارة يونس بن عاصم وعيسى وإدريس ابنى معقل فى السجن ، وكان قد اتهمهم

يوسف بن عمر عامل هشام على خراسان بالدعاء إلى بنى العباس . فلما ذهبوا إلى السجن قابلهم حارسه وكان رجلا غليظاً مفرطاً فى الطول ، متين البناء ، ينطق وجهه بالشراسة والشر . فتعمد ابن كثير أن يسقط من كمه ديناراً ، فأخذ يدور فوق الأرض ، فانقضّ عليه الحارس يلتقطه ، ثم رفعه إلى ابن كثير قائلا :

— هذا دينار سقط منك يا رجل . فقال ابن كثير :

— خذه جزاء أمانتك ، فانما اللقطة لمن وجدها . ثم تعمد إسقاط دينار ثان فانكب عليه الحارس وقال : وهذا دينار آخر . فأطبق عليه ابن كثير كف الحارس وقال :

هو لك أيضاً ، فقد أحسنت فى الأولى والثانية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ فبهت الحارس لهذه الأريحية ، ثم اتجه إليه ابن كثير سائلا :

— هل بين ضيوفك فى هذا السجن عيسى بن معقل ؟ فاننا قوم من أهله جئنا لنراه ولنحدثه فى أمور أولاده وضياعه .

— إن ابن عمر يحظر أن يلقاه أحد ، ولكن أوامر الرؤساء دائماً تصدر لتنقض ، فلا تثريب عليكم من أن تروه على شرط ألا تطيلوا المكوث ، وعلى شرط ألا تتحدّثوا فى أمر بنى العباس .

— إن لنا من الشغل بأنفسنا ما يذودنا عن الحديث فى

شئون غيرنا . وأشار إليهم الحارس بالدخول فوصلوا إلى حجرة المسجونين ، وكانت واسعة فسيحة منعزلة فى ناحية من البناء ، وما كاد يراهم من بها حتى أسرعوا إليهم فرحين معانقين ، وأخذوا يمطرونهم بالأسئلة عن محمد بن على بن عبد الله وعن ابنه وخليفته إبراهيم الإمام ، ثم عن الدعوة بخراسان ، وعن قوتها ونشاطها وانتشارها . وكان يخدمهم بالسجن شاب قصير فى نحو الرابعة والعشرين ، أسمر اللون نقى البشرة أحور العينين عريض الجبهة ، كانوا يدعونه أبا مسلم ، وهو أبو مسلم الخراسانى الذى كانت تدخر له الأيام عظمة ومجداً ، وهو الذى أقام بسيفه ورأيه بعد ثمانى سنوات لبنى العباس دولة شامخة الذرا راسخة البنيان .

جلس الجماعة بعد التحية وتبادل الأشواق ، فقال ابن كثير فى صوت خافت :

ــ هذا إسماعيل بن يسار شاعر الطائفة العباسية ومذيع فضلها وناشر مناقبها ، قدم بالأمس من الحميمة بعد أن قابل ابن عم رسول الله وزوده بما يجب علينا عمله لإشعال الثورة على الأمويين وبثها فى كل مكان ، وهو يستطيع أن يحدثنا بكثير من أخبار فتيان بنى أمية وعبثهم ، وسخط الناس عليهم ، وقد يهدينا تبادل الرأى وتجاذب التفكير إلى ما يحسم هذا الأمر ،

وإلى أن نرسم طريقاً لا حباً نمضى فيه إلى الغاية موفقين . لقد بلغ السيل الزبى ، وجاوزت الشدة طاقة الاحتمال ، ولابد من ضربة سيف قاصمة مصممة تفرق بين الحق والباطل ، وتعيد الخلافة إلى أهلها . فصاح أبو مسلم والدموع تتناثر من عينيه :

ــ نعم لابد من ضربة سيف ، ولابد أن يمحى كل أثر لأبناء عبد شمس .

ــ اهدأ يا بنى فإن الرأى لا تنضجه نيران الغضب .

ــ إن الغضب هو الذى يصهر العزائم ويشحذ الهمم ، وما حاجتى إلى رأى هزيل تزيده الشكوك ضعفاً وهزالا ؟

فالتفت ابن كثير إلى ابن معقل فى دهشة وقال :

ــ من هذا الشاب ؟

ــ هذا أبو مسلم أشدنا حماسة إلى الدعوة ، وهو أرهف من سيف ، وأنفذ إلى مطالبه من سهم ، إن نار الثورة تسرى فى شرايين جسمه ، وإننا نسميه صخرة الأرض وداهية الدواهى .

ــ هذا كله حسن ، ولكنى أحب أن يضم إلى فورة شبابه حكمة الشيوخ ودهاءهم .

ــ إن عنده من ذلك الشىء الكثير فلا يلفتك أمره عما نحن فيه .

ــ أظن أن الكلام فى جبروت الأمويين وحرمانهم إيانا

مناصب الدولة قد أصبح كلاماً مكرراً ، وحديثاً معاداً . فقال إسماعيل بن يسار :

— إنهم يتعالون علينا ويشمخون بأنوفهم حتى كأن الله خلقنا من طين وخلقهم من مسك وكافور . فقال عيسى ابن معقل :

— إن دين الله لا يفرّق بين عربى وأعجمى ، ولا بين مضرى ويمانى ، ولكن هؤلاء القوم يكيلون للناس بمكيالين ، وينزلونهم منزلين ، وينظرون لهؤلاء بعين ولأولئك بعين ، ثم يزعمون أنهم نصراء القرآن وحماة الإسلام . وهنا وثب أبو مسلم واقفاً وقال :

— لو زرت خراسان اليوم يا صاحبى لرأيت الأعاجيب . فقال ابن يسار :

— إن ما نلقاه بالشام أعجب وأغرب يا فتى . أنشدت هشاماً مرة قصيدة دفعنى الاعتزاز بقومى إلى أن أفخر بالفرس وأشيد بمجدهم القديم ، فما كان منه إلا أن غضب حتى نفرت أوداجه ، وصاح فى جبرية وزهو : أعلى تفخر بقومك أيها الأحمق ؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح فيها نفسك وأعلاج قومك ؟ ثم أمر عبيده أن يغطونى فى الماء ، فقذفونى فى بركة

حتى كدت أغرق ، ثم أمر فنفيت إلى الحجاز . فصاح عيسى ابن معقل ماذا كانت قصيدتك لله أبوك ؟

ــ قلت فيها يا سيدى :

إنى وجدك ما عودى بذى خــور
عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به
إلى لسان كحــد السيف مسموم

أحمى به مجد أقــوام ذوى حسب
من كل قرم بتاج الملك معموم

جحاجح سادة بلــج مرازبة
جرد عتــاق مساميــح مطاعيم

من مثل كسرى وسابور الجنود معاً
والهرمزان لفخــر أو لتعظيم ؟

فصاح القوم لا فض فوك يا ابن يسار ، بمثلك تنهض الدعوة وتتأجج الثورة ، فلما عادوا إلى الحديث قال إسماعيل : أما العبث بين فتيان بنى أمية فقد بلغ الغاية ، وقد جهدنا جهدنا فى إذاعة مثالبهم ونشر أخبارهم ، ووصمهم بكثير من النقائص بالحق وبالباطل ، حتى أصبحوا حديث كل غاد ورائح ، وأخذ الناس يشعرون بوجوب زوال دولتهم وانتهاء أمرهم .

والوليد بن يزيد سادر فى غلوائه ، لا يقف فى طريقه شىء ، وإذا نصحه ناصح ، أو زجره زاجر زاد عناداً وتحدياً ، كأنه يتعجَّل نهاية أيام بنى أميه . وهو ولى العهد ، وإذا ولى الخلافة على تلك الحال قوى ثورتنا ، ومكَّن لدعوتنا ، وقدم الخلافة هدية سائغة هنيئة لأمير المؤمنين ابن العباس . لكل هذا تعمل جماعتنا بدمشق على إحباط كل مسعاة لهشام فى خلعه من ولاية العهد ، ونقلها إلى ابنه مسلمة . ولأجل هذا نحث دائماً رستم غلامه على أن يوحى إليه بكل شنعاء . وعندكم بخراسان جماعة منظمة تبعث بالجوارى الحسان إلى قصور أمراء بنى أمية لإغرائهم بالتبذل ، وليكن جاسوسات عليهم ، ينقلن أخبارهم ، ويفشين أسرارهم . وقد نجحن كثيراً وأصبحن المتحكمات فى الدولة ، المسيطرات على خلفائها وقوادها . ولو طال عمر « حبابة » جارية يزيد بن عبد الملك قليلا ، لانتهى حكم بنى عبد شمس منذ حين ، ولكنا اليوم ناعمين هانئين فى ظل خلافة بنى العباس .

فصاح أبو مسلم :

— لقد طال حكم هشام حتى كاد يدب اليأس إلى نفوس بعض ضعاف العزائم من شيعتنا . فقال ابن يسار :

— لقد طال حكمه حقًّا ، وهو قاس صارم يريد أن يعيد الأموية إلى ما كانت عليه أيام معاوية ومروان وعبد الملك .

شحيح بالمال جمّاع له ، كأنه يريد أن يصون كل دينار ودرهم لحماية الخلافة والذود عنها إذا خرج عليها خارج . فلم يعط أحداً من بنى مروان عطاء إلا إذا خرج للغزو بنفسه أو أخرج من ينوب عنه . ورد عليه يوماً محمد بن زيد للعطاء فقال له : « مالك عندى شيء ، وإيّاك أن يغرك أحد فيقول لك : إن أمير المؤمنين لم يعرفك ، فوالله لقد عرفتك ، أنت محمد بن زيد ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فلا تقيمن وتنفق ما معك ، فليس لك عندى صلة » . فعاد الرجل إلى المدينة بخفى حنين . وبعث إليه أحد عماله بسلة خوخ فكتب إليه : قد أعجب الخوخ أمير المؤمنين ، فزدنا منه واستوثق من الوعاء حتى لا يسرق فى الطريق . وأخبرنى غلامه فيروز أن بعض المشرفين على ضياعه بعث إليه خادماً بطائرين ظريفين ، فدخل عليه وهو جالس فى سرير فى عرصة الدار ، فقال للخادم : أرسل الطائرين لأنظر إليهما ، فأرسلهما ، ولما أراد الخادم الانصراف طاب جائزته ، فقال له هشام : ويلك وما جائزة طائرين ؟ قال : أى شيء تجود به . قال : خذ أحدهما . فعدا فى الدار خلفهما ، فقال له هشام : ماذا تصنع ؟ قال : أختار خيرهما . قال : أتختار خيرهما وتدع لى شرهما ؟ لا والله لا نلت منهما ريشة ، لعن الله ناقة حملتك إلينا ! وهذا هو الرجل الذى تخضع

الدنيا لأمره ، وتجبى إليه ثمراتها . ولقد كان مرّة فى أحد بساتينه ، والزرّاع يجمعون الزيتون ، فرآهم يهزون الأشجار ليتناثر زيتونها ، فصاح : القطوه لقطاً ، ولا تنفضوه نفضاً فتنفقأ عيونه ، وتنكسر غصونه . هذا هو هشام : بخل فكرهه الناس ، وقسا فحقد عليه الناس ، وطال عهده فضجر منه الناس. فقال ابن كثير :

— إنه الصخرة الصماء التى تتحطم حولها آمالنا ، والتى يجب أن تزول من الطريق . فقال ابن يسار :

— إنه مصاب بذبحة الصدر ، ولولا دواء مزجه له طبيبه « فرات بن شحناثا » لقضى عليه منذ سنوات ، واستراحت الدنيا منه ومن صلفه وشحه . فزفر عيسى بن معقل طويلا ثم قال : ألا يستطيع فتى أحــوذى أن يروى خنجره بدمه ؟ . فأجاب ابن كثير :

— إن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا ، فقد يكفى أن نوعز إلى خادمه فيروز أن يريق ما فى زجاجة الدواء ، ويضع مكانه ماء بلونه ، فإذا أدركته النوبة وأسعف بالدواء لم يغنــه الماء شيئاً . فصاح جميعهم هذا رأى صائب . مر فيروز أن يفعل هذا يا ابن يسار . وهنا عاد ابن كثير إلى الحديث فقال : لنوجز الآن ما استقر عليه رأينا ليعمل كل منا على إنفاذه وليبلغه ابن يسار إلى الإمام محمد بن على . فقد رأينا أولا أن نبث بين

الناس بغض بني أمية والسخط على حكمهم ، وأن نبتدع الأقاصيص والأخبار التي تشوه سيرتهم وتثير الضغينة عليهم ، ثم أن نغري الوليد بالاستمرار فيما هو آخذ فيه بكل ما في مكنتنا من وسائل ، وأن نذلل له السبيل إلى الخلافة فإنه لن يمكث بها أياماً حتى تدول ، ثم أن نقلل من مدة هشام ، وأن نقطع الخيط الذي يصله بالحياة ، وعلينا أن نفكر في كل لحظة في اليوم الذي تنجلي فيه هذه الغمة حتى كأنه الغد ، وأن نسخر من العقبات التي يضعها أجراء بني أمية في طريقنا . هلم الآن فقد طال بنا الجلوس .

ويخرج الزوار فيمرون بالحارس لدى الباب ، فيتجه إلى ابن كثير وهو يقول في سخرية ودهاء :

— الآن لا تسقط دنانيرك أيها الشيخ !

— كان بثوبي فتق فأصلحته .

— أخشى أنك تعمل أنت ومن معك لفتق لا يرتق .

— قد يكون الهدم إصلاحاً في كثير من الأحيان .

— إلا أن تهدم داراً على ساكنيها . احذر يا شيخ فإني أجد في أعطافك ريح الثورة . والثورة نار مجنونة ، تأكل أول ما تأكل مشعليها ، اذهبوا فإني لا أرى في وجوهكم خيراً .

فسار الثوار حتى بلغوا دار بكير بن ما هان ، وأقام معهم

إسماعيل بن يسار أياماً ثم عاد إلى دمشق لينهض العزائم ويثير الهمم .

موت وحياة

مرّت شهور والوليد بن يزيد لايزال يزور قصر سلمى فى كل أسبوع لبيع الثياب ، حتى بليت الثياب وملّ الحمار . ومرت شهور وهشام ما زال يتحرّق غيظاً على الوليد وعلى أنصاره الذين تحدوه واختطفوا ابنه مسلمة ، وجعلوا رده ثمناً لفك من اعتقلهم من أصحاب الوليد . ومرّت شهور ويزيد بن عنبسة لا يزال يلح على سعيد بن خالد فى أن يزوجه سلمى ، وهو يرجئه ويراوغه ، ويرده خائباً محسوراً . وفى ذات يوم أعلمته « صدوف » إحدى جوارى الوليد ، وكانت جاسوسة له عليه ، أن الوليد يزور سلمى فى كل أسبوع فى هيئة بائع ثياب ، فيتبادلان الحب والصبابة ، فزاد حقده على الوليد ، وأخذ يدبّر له الغوائل .

وساقته قدماه يوماً إلى دار الخلافة ، فلما بلغ قاعة الحكم رأى « يعقوب » حاجب هشام لدى الباب ، فسأله عن الخليفة فقال :

— إنه بالقاعة مع كثير من رجال بنى أمية ، وهم يتحدثون

فى أمر ذى بال ، وقد حجب الباب ، وأرسل رسولا إلى دارك .

— نبئه بقدومى يا يعقوب ، فإنى أود أن أحدثه أيضاً بأمر ذى بال . ودخل يعقوب وعاد سريعاً بالإذن ، فلما مثل ابن عنبسة أمام هشام رآه مطرقاً ، وقد اربدَّ وجهه ، وانتفض عرق بصدغه الأيسر كان ينتفض كلما غضب ، ورأى عنده يزيد ابن الوليد والزهرى ومحمد بن هشام المخزومى وأخاه إبراهيم وبنى القعقاع العبسى ، ثم العباس بن الوليد ويزيد بن خالد .

سلم ابن عنبسة فرفع هشام رأسه متثاقلا وقال : وعليك السلام يا ابن عنبسة! هلم إلينا فإننا بصدد أمر خطير سيكون له ما بعده ، ونرجو أن نخرج بعد أن نكون قد نصحنا لله ورسوله ولصالح المؤمنين . هذا ابن أخى الوليد قد شرد على الله شراد البعير ، وجالس قرناء السوء ، وركب رأسه جامحاً . ثم هو لا يزيده النصح إلا إسرافاً فى العناد ، ولقد عاهدت أخى يزيد ابن عبد الملك وحلفت له أوثق الأيمان أن تكون الخلافة له من بعدى ، ولم أكن حين أقسمت أعلم أنى أقسمت على أن أترك زمام الخلافة وهى معقد آمال المسلمين ، ومعقل أمنهم ، فى يدى مثله ، ولكنى أقسمت حين أقسمت وأنا أرى غلاماً أزهر الوجه ؛ نبيل السمات ، توحى مخايله بصدق الأمل فيه ، وتنطق ملامحه بالثقة به ، ورب سم كامن فى الزهر

النضير ! وموت راكد فى الماء النمير ! وأنا الآن يا بنى مروان بين خلتين ؛ إما أن أترك الأمة بعد موتى تنساق إلى الدمار بولاية الوليد وهنا النازلة الفادحة ، والقاصمة القارعة ، وتمزيق أوصال الدولة ، وفناء بنى أمية بالموت أو بالذل والهوان . وإما أن أحمى ما ورائى ، وأتخذ الأهبة للقاء ربى ، وأصون تراث آبائى ، فأخلع الوليد من ولاية العهد ، وأختار للمسلمين رجلا يحمى ذمارهم ، وللخلافة من يبعث فيها العظمة والقوة والشباب .

فقال يزيد بن الوليد : لا يصلح لها إلا ابنك مسلمة .

— دعك من هذا الآن يا ابن العم ، فلن يحسن فى هذا الأمر إلا أن ننسى أنفسنا وأبناءنا ، والذى نفس هشام بيده لو علمت أن صلاح هذا الأمر فى اعتزالى لاعتزلت ، ولو علمت أن غير مسلمة أقوى بالخلافة كاهلا ، وأضبط يداً لقدمته عليه . فأسرع إبراهيم المخزومى قائلا :

— لن تصلح الخلافة إلا بك يا أمير المؤمنين . وإذا كان لنا فى الله رجاء فهو أن تبقى فيك ثم فى ابنك مسلمة من بعدك ، فإنه بضعة منك ، فيه ما فيك من دين وسياسة وحزم . فصاح أبناء القعقاع : لن نرضى بمسلمة بديلا ، أما الأيمان التى عقدتها لأخيك لتولية ابنه من بعدك فإن الله يحلك منها . وهنا قال الزهرى فى صوت خافت :

ــ يرى بعض المفسرين فى قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » أن المعنى لا تجعلوا القسم بالله حائلا بينكم وبين البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فإذا حلف رجل أن يأتى منكراً وجب عليه أن ينقض يمينه ويكفر عنها . فقال ابن عنبسة : هذا تفسير عظيم . وأسرع هشام فقال :

ــ إذاً أنا فى حل من هذه الأيمان ولم يبق إلا أن نكتب ميثاقاً ندون فيه مساوئ الوليد ومثالبه ، وأنه لا يصلح للخلافة ، ونثبت فيه محامد مسلمة ومناقبه ، وأنه خير من يقوم بها من بنى أمية ، وأن أمير المؤمنين لكل هذا خلع الوليد من ولاية العهد ونقلها إلى مسلمة . أين سالم أبو العلاء ؟ فتحرَّك العباس ابن الوليد فى مجلسه قليلا ، وهو يكبت غيظاً دفيناً ، وقال :

ــ قبل أن تدعو كاتبك يا أمير المؤمنين أرى أن نبحث فى الأمر حتى نصل فيه إلى غاية تثلج الصدر ، وتبدد الشكوك . فأجاب هشام غاضباً :

ــ ألم نمحص الأمر بحثاً ودراية ؟ ألم يصبح عبث الوليد حديث الناس ومسلاتهم فى أسمارهم ؟ أليس ابنى مسلمة دينه وعقله خيراً ألف مرة من الوليد ؟ فأجاب العباس :

ــ إن الأمر يا أمير المؤمنين أعظم خطراً من أن نتقسع فيه

بالحياء ، وأجل شأناً من أن نجتذب فيه رضاك ، أو نجتنب فيه سخطك . أنا شاك غير مستيقن بكل ما قلتم ، فلا الوليد قد وصل إلى تلك الهاوية التى زعمتم ، ولا مسلمة قد بلغ تلك القمة من الصيانة والتقوى ، ولا تلك الأيمان التى أكدتها لأخيك أصبحت لغواً فصرت فى حل من نقضها .

فبهت من بالمجلس ، واصفرّ وجه هشام ، واحمرت عيناه من الغيظ ، وضرب عرق صدغه ، وانتفض وصاح حتى ملأ صوته القاعة :

— هكذا أنتم دائماً يا أولاد الوليد بن عبد الملك ! تحقدون على وعلى أولادى ، ولقد كاد يسلبكم الضغن عقولكم حين ما ازورّ عنكم وجه الخلافة بعد أن تجاذبتم أطرافها ، فأصبحتم تعدون علينا الأيام ، وتتمنون أن تتقلّص عنا ظلالها . إنكم أعظم كيداً للخلافة ، وأكثر عدواناً عليها ، من العباسيين والعلويين والترك والديلم ، ووالله لولا خشية منه ، ولولا أن يقول الناس حارب هشام أهل بيته ، لبدأت بكم قبل أن أبدأ بمقاتلة المتألبين على الدولة من الخوارج . أما قولك إنك فى شك من الأمر فباطل يراد به إزهاق الحق ، وإطلاق شيطان الفتنة من عقاله ، ليعيث معكم فى الدولة كما تعيثون . فوقف يزيد بن خالد وقفة المناضل المتحدى وقال :

— مهلا أمير المؤمنين ، فنقل الخلافة من رجل إلى رجل أمر جلل ، لا يكفى فيه أن يكون أمير المؤمنين ساخطاً على هذا أو راضياً عن ذاك . لقد قال العباس حقًّا ، وإن رأى من تجمعهم اليوم من أنصارك لا يكفى لإقناع الأمة وحملها على نبذ العهد الذى عاهدتك عليه . والأمر شديد الخطر على أمير المؤمنين قبل أن يكون شديد الخطر على الوليد . لقد بايعك الناس فى عهد واحد وفى ميثاق واحد على أمرين لا على أمر واحد ، بايعوك بالخلافة ، وبايعوك على أن تكون الخلافة من بعدك للوليد بن يزيد ، فإذا نقضت بعض العهد يا أمير المؤمنين انتقض كله ، وتحلل الناس من البيعة لك ، وصح لكل خارج عليك أو ضجر من حكمك أن يصيح فى الناس : أيها المسلمون. إن هشاماً نقض العهد الذى بينه وبينكم ، فليس له فى رقابكم بيعة . أتريد أن يحصل هذا يا أمير المؤمنين ؟ أتريد أن توقظ راقد الفتنة وتعيد أيام صفين حين احتكم المسلمون إلى سيوفهم فى شأن الخلافة ؟ إن هؤلاء يا أمير المؤمنين الذين يزينون لك ما تحب ، ويقربون لك الأقصى مما تريد ، أعداء فى ثياب أصدقاء ، أو مخبولون فى مسوك عقلاء . ثم من هم أبناء الوليد الذين يكيدون لك ويدبرون السوء لدولتك ؟ أتستطيع أن تشير إلى واحد منهم عن بينة ويقين ؟ دعك من كل هذا

يا أمير المؤمنين ، واترك الأمر كما هو ، فلسنا فى حاجة إلى فتن جديدة نشعلها بين الناس ، فإن الفتن تنبث فى كل مكان ، وإن تحت الرماد للهيباً وضراماً . وما كاد يسكت حتى ابتدره ابن عنبسة قائلا :

— ما هذا التهويل يا ابن خالد ، أنا أعرف صلتك بالوليد ومحبتك له وتهاديكما الجوارى الحسان ، وأعرف أنك تطمع أنت والعباس فى أن يكون لكما شأن فى خلافته بعد أن انبتَّ بكما الحبل فى هذه الدولة . ثم ما أخلوقة البيعة هذه التى إذا انتقض بعضها انتقض كلها ، وهنا تمتم الإمام الزهرى قائلا :

— إن ما قاله ابن خالد حق ، لأن الجزأين متلازمان . وقد تفهم البيعة على وجه آخر ، هو أن الناس بايعوا هشاماً بالخلافة على شريطة أن يتركها بعده للوليد ، فإذا أقصى الوليد عن ولاية العهد فقد نقض شرط ما بايعوه عليه ، وبهذا تسقط بيعته من أعناقهم . فوجم هشام ، وجفَّ ريقه ، وظهرت الحيرة على وجوه أنصاره . وهنا قال العباس :

— قلت إن عندى شكًّا ، ولم أكن فى هذا القول كاذباً ولا متجنياً ، إن أكثر ما يشاع عن الوليد إفك ومين ، وهى أكاذيب ولع الناس بها ، واختلقها قوم لهم فى اختلاقها مأرب ومغنم . فعجل الزهرى وقال :

— لا يا ابن الوليد لقد رأيته بعيني وحوله القيان ينقرن الدفوف ، والمغنون يضربون على البرابط والطنابير .

— هذا يا مولانا أمر لا يخلو منه قصر من قصور بني أمية. ثم التفت إلى هشام قائلا : ثم إني لا أعرف من رجال بني أمية من يبغض الوليد إلا القليل ممن يحيطون بهذا القصر ، ويتزلفون إلى صاحبه . ولو أنك يا أمير المؤمنين خلعت الوليد لأثرت فتنة شعواء في حياتك ، وفرقت كلمة المسلمين بعد مماتك . فإني أرى بعين الغضب — وأطال الله بقاء أمير المؤمنين — أن الناس سيختلفون بعد موتك ، وسوف يعد كثير منهم نقضك الولاية للوليد أمراً باطلا ، فينصرفون إليه ، ويبقى فريق مع مسلمة ، ويتقاتل الفريقان ، ويأتي العباسيون فيضربون هذا بذاك ويختطفون الخلافة من أيديهم . يا أمير المؤمنين : دع الأمر كما هو ، ودع كلاب الفتنة نائمة ، فإني أخشى أن نكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا . والله يعلم أني لك ناصح وعلى خير المسلمين أمين.

فانتفض هشام واقفاً وقال : اذهبوا عني الآن ، فإن عقلي يكاد يطير من رأسي ، اذهبوا فللخلافة رب يحميها ، وأين هشام إذا أراد أمراً وأراد الله غيره ؟ فانصرف القوم في وجل ورهبة ، وبقي ابن عنبسة متخلفاً ، فلما خلت القاعة التفت إليه هشام وقال في ألم ممض :

— طار العصفور من أيدينا ، وبقى على دوحته ينظر إلينا مغرداً ساخراً . لقد خاب الأمل فى بنى أمية .

— دعه يغرد قليلا يا أمير المؤمنين ، فإننا سنعد له بعد قليل فخاً وسكيناً .

— كيف يا ابن عنبسة ؟

— إذا لم نستطع خلعه من ولاية العهد استطعنا خلعه من الحياة .

— معاذ الله أن أمد يدى إلى الوليد بسوء ، لا تفكر فى شىء من هذا يا ابن عنبسة ، أتريد أن تجعلنى أحدوثة فى الناس وأن يقول القائلة إن هشاماً قتل ابن أخيه ؟

— لن يكون لك يا أمير المؤمنين فى هذا الأمر ورد ولا صدر ، وإنما .

هو الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشدد

— لا . لا . يا يزيد ، وإياك أن تقتل نفساً حرم الله إلا بالحق .

— لقد كنت أفكر يا أمير المؤمنين فى التخلص من الوليد ، لا لأنه يزاحم مسلمة فى الخلافة فحسب ، بل لأنه يزاحمنى فى سلمى بنت سعيد .

— لقد حلت بينه وبين هذه الأمنية ، وأمرت سعيداً ألا يرضى به زوجاً لبنته .

— من يدرى يا أمير المؤمنين ؟ فإن الأحوال قد تحول ، وقد يصبح سعيد له راجياً بعد أن كان آبياً .

— ماذا تريد أن تقول لا أم لك ؟

— أطال الله حياة أمير المؤمنين ومد فى عمره .

— سمعت هذه الدعوات من آلاف الآلاف من الناس ، ولكن الدعاء لا يمنع القدر .

— إن لكل نفس أجلا يا أمير المؤمنين لا تستقدم عنه ساعة ولا تستأخر .

— دعك من ذكر الموت ، وخض فى حديث آخر .

— كانت لى جارية اسمها «صدوف» يا أمير المؤمنين اشتراها منى الوليد من خمس سنوات ، وهى لا تزال تهفو إلى ، وتحن إلى ذكراى ، وتنقل لى أخباره . ولو أنى أمرتها أن تثب فى النار ، أو تنام فى خيس الأسد لفعلت مطيعة راضية ، وقد كنت أريد إغراءها بقتل الوليد قبل أن يستنكره أمير المؤمنين وينهى عنه ، وأمير المؤمنين واجب الطاعة ، وقد كان الأمر جد هين ، فإن مروان بن الحكم الذى كانت تنتفض منه قلوب الأبطال رعباً ، لم يقتله إلا امرأة هى زوجه أم خالد ، فقد وضعت على وجهه

وسادة وهو نائم ، فلم ترفعها عنه حتى مات . فأغمض هشام عينيه وغادر الحجرة غاضباً وهو يقول : احذر يا ابن عنبسة أن تدنس يديك بالدماء ! إنى أنهاك إنى أنهاك !

وخرج ابن عنبسة من عند الخليفة بعد أن خدعه وأظهر له العدول عن الفتك بالوليد ، والتقى بعد أيام بصدوف فى داره ، لأنها كانت تتغفل أهلها وتختلس زيارته بين الحين والحين ، فأحسن لقاءها ، وأكثر من الحفاوة بها ، وطوقها بهالة من غزله وتشبيبه ، وبثها كثيراً من أشواقه فأججَ فى قلبها ناراً كاد يطفئها اليأس ، وفتح باباً من الرجاء أغلقه القنوط . فمالت عليه مذهولة حيرى بعد أن أثار فيها حبًّا قديماً كان يساورها فى اليقظة والمنام ، وهاج فى نفسها وجداً كامناً لم تفل من حدته الأيام ، ثم أخذت تتمتم ورأسها على كتفه قائلة :

— حبيبى . ماذ جدّ لك ؟ لقد كنت ألقاك قبل اليوم فلا أجد فيك تلك النشوة ، ولا أحس لقلبك بهذا الخفقان الذى كأنه صدى وجيب قلبى .

— كنت أكظمه يا صدوف ، وكنت أربأ بمروءتى أن أمد يدى إلى طعام غيرى ، ولكن لكل شىء طاقة ، وقد عجزت طاقتى ، وناء صبرى بأن يحتمل أكثر مما احتملت ، ولا بد للماء فى مرجل أن يفور ، وللسيل المحتبس أن يخترق ما أمامه من

جنادل . لقد بعتك يا حبيبة قلبي في ساعة جنون ، ولم أعرف الهدوء منذ ذلك الحين ، ولكنى كنت أخاف أن أظهرك على ما في نفسي فأجدد لك شوقاً وحزناً أنت عنهما في غناء . ثم انكب عليها يقبلها في ظمأ ونهم ، ويهمس في أذنها بما يلقى من العصابة والهجر . فأحاطت وجهه بيديها الرخصتين وهى تقول : ليتنى أعود إليك يا حبيبى . هل من سبيل ؟ فأطرق كالمفكر وقال :

— ليس من سبيل إلا أن يبيعك لى الوليد .

— إنه كثير النفور منى ، متجن عسوف ، ولكنه شديد البغض لك ، وهو يؤثر أن يبيعنى لمجوسى ولا يبيعنى لك ، ولو وازنتنى بالذهب .

— إذاً لم يبق من سبيل .

— إننى لا أستطيع الحياة بعيدة عنك يا حبيبى .

— ويل للوليد . إنه سد منيع بين قلبين .

— سد من فولاذ .

— أنستطيع أن نحطم هذا السد ؟

— كيف يا حبيبى ؟

— إن الحديد بالحديد يفلح ، بهذا الخنجر . ثم قذف بالخنجر فسقط في حجرها ، فقامت مذعورة وقد تفتحت

عيناها ، وارتعشت يداها ، وأدركها ما يدرك النساء ساعة الوهل من الذهول وارتجاف العصب . ثم همست والكلمات تتعثر بلسانها :

— تريد أنه يقتل ؟

— نعم يقتل ، لأن الحب لا يقف فى طريقه شىء .

— لا يا حبيبى ؛ دعنى من القتل وذكر الدماء . وخذ فى وسيلة أخرى .

— ليس أمامى شىء غير القتل ، ولو واتتنى الفرص كما تواتيك ما توانيت لحظة عن قتله .

— كما تواتينى ؟ أتريد أنى أقتله أنا ؟

— ولم لا ؟

— لا ، إننى أوثر أن يقتلنى الحب على أن أمد يدى لقتل رجل أعيش تحت سقف داره .

— تعيشين تحت سقف داره ذليلة منبوذة . تعيشين تحت سقف داره وتتركينه ينام ملء عينيه هانئاً سعيداً ، وحبيبك يتقلب دنفاً حزيناً على فراش من سهاد . تعيشين تحت سقف داره وتتحرجين من قتل رجل يقتل نفسين فى وقت معاً . إننى لن أعيش طويلا إذا ظلت هذه الحال ، ولن تمر أيام حتى تذرف الدموع على شهيد قتلته حبيبته ، لأنها لم تقتل قاتله .

— إن القتل أكبر الجرائم إثماً عند الله والناس .

– ألا يقتل بعض الناس بعضاً فى الحرب فرحين متفاخرين ؟

– ذلك فى ميدان الحرب يا حبيبى .

– إن الوليد يحاربنى ويحاربك بسلاح مسموم ، فيجب أن ندفع عن أنفسنا ، وأن نقتل قاتلنا .

– ولكنى لا أقتل أحداً .

– إذا لم تقتليه فخير لى أن أقتل نفسى ، ثم وثب نحو الخنجر فدفعته عنه مذعورة وصاحت : لا تفعل يا حبيبى ، وقل ما شئت فإننى لك سمع وطاعة . فارتمى على وسادته كالمجهود ثم قال :

– إن الأمر أهون ما يكون ، إن الوليد ينام وحده ، فإذا هدأت الأصوات ، ونامت العيون ، ولم يبق من الليل إلا أقله ، تسللت إلى حجرته كأنك الطيف الطارق ، أو الظل السارى ، فأغمدت هذا الخنجر فى صدره وهو نائم ، دون أن تسمع لك نأمة ، أو تحس حركة ، ثم عدت فغسلت يديك ، ونمت مطمئنة هادئة . فإذا جاء الصبح وعلم الأمر ، سهل أن يتهم بقتله أحد خدمه ، وبينهم رستم الفارسى الذى هو جاسوس عليه من خراسان . ثم ناولها الخنجر فخبأته تحت ثيابها وخرجت من لدنه مضطربة ذاهلة كأن بها مسًّا من جنون .

ولما بلغت القصر لمحها ابن رقية ، وقرأ بعينه البلهاء ما على وجهها من خوف وحذر ، ورأى فى اضطراب مشيتها ، وفى حديثها الذاهل المتعثر ما يريب ، لأن المسكينة على ما بذلت من جهد ، لم تستطع أن تكبت ما يجيش فى صدرها من أمواج الدسيسة . لمحها أبو رقية فأخذ يغالط نفسه ، ويتهم عينيه ، ويلوم عقله المختبل على إساءة الظن بفتاة قد يكون عصف بها مطل حبيب ، أو فراق خليل . ثم إنه يعرف بصورة مبهمة أن الوليد ينأى عنها بحبه ، ويخص بغرامه سعاد الكوفية ، فلعل ثورة من الغيرة طافت بها فى هذه اللحظة ، والنساء لغز معقد لا يهتدى إلى حله ، وتيه مضلل تدور فيه ولا تخرج منه ، ولكنه رجع إليها البصر فلمح نتوءاً لا يكاد يرى عند أعلى فخذها اليمنى ، فعاوده الشك وتملكته الحيرة : أتخفى صدوف شيئاً تحت ثيابها ؟ ولم تخفيه إذا لم تقصد شرًّا ؟ وما هو؟ ولعب الشيطان بعقله ، وتزاحمت هواجسه ، فصمم على أن يتابع حركاتها دون أن تشعر ليرى إلى أى مدى تنتهى ، وجاء المساء ، وانصرف أهل القصر إلى شىء من اللهو والطرب كعادتهم ، وصلى الوليد العشاء الآخرة بعد أن مر هزيع من الليل ، وتحين أبو رقية غفلة العيون فدلف إلى حجرة نوم الوليد واختفى تحت سريره ، ثم ذهب الوليد لينام ، وأوى من بالقصر إلى مضاجعهم ،

ولما سكتت الأصوات ، ولف القصر ضرب من سكون الموت بعد أن كان يضطرب بضجيج الحياة ، وأوشك الليل أن يزمع الرحيل ، قامت صدوف من مرقدها خائفة مرتعشة ، ولكنها استعانت ببقية من مذخور عزيمتها فأسرعت الخطا فى حذر وترقب ، حتى بلغت الحجرة فدخلتها ، فسمعت تنفس الوليد هادئاً فأدركتها رجفة ، ولكنها لم تأبه لها ، وتقدمت والخنجر فى يمينها ، وسمع أبو رقية خطواتها فتزحزح ليخرج من تحت السرير ، فرأى صدوف ويدها تمتد بالخنجر إلى صدر الوليد ، فوثب من مكانه وقبض على يدها بقوة ليست فى طوق البشر ، وذعرت الفتاة للمفاجأة فصرخت وقذفت بالخنجر ، ودهمتها موجة جارفة من البكاء والنحيب واستيقظ الوليد فدهش لما رأى وصاح :

— ما الخبر يا أبا رقية ؟

— شيء تافه ، فتاة تريد أن تنافسنى فى الجنون .

— قل لى ما الخبر قبل أن أكون مجنوناً ثالثاً .

— سلها يا سيدى . وكان من بالقصر قد تيقظ للجلبة والصياح ، فهرع الجوارى والخدم إلى حجرة الوليد ، وجاءت أمه ترتعد من الخوف ، حتى إذا رأته رمت بنفسها بين ذراعيه وهى تجهش بالبكاء ، وقبض الوليد على ذراع الجارية وقال :

— قولى ماذا كنت تقصدين بهذا الخنجر؟ فأجابت بين الشهيق والعويل :

— كنت أقصد أن أقتلك .

— ولم تقتليني يا فتاة ؟

— ذلك سر أطويه لنفسى .

— هل أغراك أحد بقتلى ؟

— لم يغرنى أحد . فازداد غيظ الوليد ولكنه كبح غضبه وأمر سبرة أن يحبس الفتاة وألا يمسها بسوء ، ثم التفت إلى أمه وهو يقول مشيراً إلى أبى رقية :

— لقد أنقذنى هذا المجنون .

— إنه ليس بمجنون يا بنى . إنه إذا أراد كان أعقل العقلاء . حياك الله أبا رقية ! لقد نجيت ولدى .

— لعل من أكبر علامات جنونى أنى أهتم دائماً بهذا الوليد الذى لا يساوى جناح بعوضة . فضحك الوليد وقال : الآن عاد إليك الجنون . قل لى بالله : كيف وصلت إلى حجرتى ؟

— لقد ارتبت فى أمر الفتاة منذ الصباح ، وجال فى نفسى أنها تريد بك شرًّا لا أدرى لماذا ، فاختبأت تحت سريرك قبل أن تنام ، وقد صدق ظنى ، وتحققت وساوسى . فقالت أم الوليد : هذه مؤامرة من أعدائك حركت ساعد الفتاة بالخنجر ،

فاحذر يا بنى فإنك تمشى فوق أرض ملئت بالفخاخ !

وانتهت الحادثة ، ومرت أيام وأيام ، وعرف ابن عنبسة من اختفاء صدوف أن المؤامرة لم تفلح .

وفى أحد الأيام خرج الوليد للصيد مع فريق من ندمائه ، وبينما كان يعدو بفرسه « السندى » خلف غزال ظهر فارس من عبيد بنى أمية كان مختفياً خلف أكمة ، فلمحه الوليد وهو يصوّب إليه سهماً فراغ منه ، فرماه بثان وثالث فأخطأه ، وعجل الوليد فدار ووثب عليه بالسيف فأطاح رأسه وقال :

ألم تر أنى بينما أنا آمن يخب بى السندى قفرا فيافيا

تطلعت من غور فأبصرت فارساً فأوجست منه خيفة أن يرانيا

ولما بدا لى أنما هو فارس وقفت له حتى أتى فرمانيا

رمانى ثلاثاً ثم إنى طعنته فروّيت منه صعدتى وسنانيا

وقد علم الوليد بعد هذه المخاتلات المتكررة أن حياته أصبحت فى خطر داهم ، وأنه إذا نجا مرة وأخرى فلن ينجو فى كل مرة ، وتحدث مع أمه وندمائه فى الأمر ، فعقدوا العزم على أن يفر بنفسه فى البوادى ، وأن يتنقل بين المنازل والمناهل فلا يعلم مستقرّه إلا أخلص خلصائه ، فهجر دمشق مع بعض جواريه وأصحابه ، وخلف كاتبه عياض بن مسلم بالرُّصافة ليكون له جاسوساً على هشام ولينبئه بأخباره .

ونزل على ماء يسمى « الأغدف » بعمان بين أرض بلقين وفزارة ، ونسى الناس بدمشق الوليد ، وأطرقت أفاعى أعدائه إلى حين .

ومرت أيام وشهور على الوليد وهو يعانى الهم والضيق ، وينتقل بين أحياء العرب كالطريد المنبوذ ، فى خشونة لم يتعودها ، وجفوة ليس له بها عهد .

وفى ليلة الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، أحس هشام ضيقاً فى صدره واختناقاً ، فأخذ يئن أنيناً ، ويدلى رأسه من النوافذ ليلتقط بعض النسيم ، ويهمس فى ضعف ويأس : هذه الذبحة ! هذه الذبحة ! لقد عاودتنى ، ليس لى منها نجاة هذه المرة . مروا فيروز يحضر دواء الذبحة فإنى ما أرانى إلا مائتاً .

وأسرع فيروز فأحضر الزجاجة ولم يكن بها إلا ماء ملون ، فجرع هشام منها مرات فلم تفده شيئاً ، واشتد به الداء فألقى رأسه على الوسادة ، وأخذ يردد أنفاساً قصاراً .

وعلم عياض بن مسلم بمرضه وإشرافه على الموت ، فأسرع وختم على خزائن الأموال ، وأمر خزّانها أن يحتفظوا بما فى أيديهم ، وألا يخرجوا من خزائنهم شيئاً ، وإلا كان جزاؤهم الموت .

وأفاق هشام من غشيته فطلب مروحة من بيت المال يجتذب بها

بعض الهواء إلى صدره ، فقيل له : إن الخزائن مقفلة موصدة ، فزفر زفرة قصيرة ثم قال بصوت يزاحمه الموت : « أرانا كنا خزاناً للوليد » ثم مات . وحينما هم أهله بغسله طلبوا قميقماً ليسخن فيه ماء الغسل ، فقيل لهم : إن الخزائن مقفلة موصدة ، فاستعاروا قمقماً من الجيران ، ثم طلبوا له كفناً فقيل لهم : إن الخزائن مقفلة موصدة ، فكفنه أحد عبيده من حر ماله .

وهكذا يموت من ملك الدنيا ، ودانت له الأرض ، فلا يجد إناء لماء غسله ، ولا يجد كفناً فيكفنه العبيد . فسبحان من له الملك الدائم والعزة التي لا تبيد ! !

ضحك وبكاء

أقام الوليد طويلا بالصحراء حتى جفاها وجفته ، وأسأمها بالشكاية وأسأمته ، وبينما كان جالساً ذات يوم إلى ندمائه وهم يتحدثون في دمشق وليالى دمشق وما فيها من إشراق ومتاع ، إذ طاف به خيال سلمى فاستبد به شوقه ، واشتد إليها حنينه ، وصاح : لقد انقطعت الرسل بيني وبينها ، وأصبحت لا أطيق لهذا البين احتمالا ، ولا عليه صبراً . ليت شعرى أين الآن وجهها ؟ وماذا تفعل الآن بعدى؟ ألا تزال راعية لعهدى حافظة

لودى ؟ أنخشى أن يكون ابن عنبسة قد وجد إليها الطريق ذلولا ، وأنخشى أن يكون أبوها قد تغلب على عنادها ودفعها إلى قبول هذا العتل الزنيم زوجاً . ثم تأوه وزفر وطلب إلى عمر الوادى أن يغنى :

طاف من سلمى خيال بعد ما نمت فهاجا
قلت عد نحوى أسائل ك عن الحب فعاجا
بفلاة ليس ترعى أنبتت شيحاً وحاجا[1]

فغنى الأبيات بصوت حزين بكى له الوليد وبكى له من معه ، ثم عاوده الفرح فجأة وطلب إلى أبى كامل أن يغنى :

أصبح اليوم وليد هائماً بالفلوات
ابعثوا خيلا لخيل ورماة لرماة !

فلما سكت أطرق الوليد طويلا ثم اتجه إلى عبد الصمد ابن عبد الأعلى وقال : أما لهذا الليل من آخر يا ابن عبد الأعلى؟ أما آن لهذه الغمرات أن تنجلى ؟ لقد طالت مدة هشام حتى مللت انتظار يومه ، وكأنه يريد أن أسبقه إلى الموت .

فقال عبدالصمد : رفقاً بنفسك يامولاى فإنى أرى فى ظلمات الغيب نوراً يأتلق ، وأسمع فى صدرى همساً يبشر بالفرح القريب :

ألم تر للنجم إذ شيّعا يبادر فى برجه المرجعا؟

فقلت وأعجبنى شأنه ... وقد لاح إذ لاح لى مطمعا
لعل الوليـــد دنا ملكه ... فأمسى إليه قد استجمعا
وكنا نؤمـــل فى ملكه ... كتأميل ذى الجدب أن يمرعا
عقدنا له محكمات الأمو ... ر طوعاً، فكان لها موضعاً

فاهتز الوليد للشعر وقال: حياك الله يا ابن عبد الأعلى! ألا تزال تؤمل فى ملكى كتأميل ذى الجدب أن يمرع ؟ إذاً فلتؤمل طويلا ، ولتصبر طويلا ، فإن بينك وبينه سدًّا من صخـــر وجنادل يسميه الناس هشاماً ، ثم وجه الحديث إلى المنذر بن أبى عمرو فقال : أتعرف يا ابن أبى عمرو أن ليلة لم تأت على منذ عقلت عقلى أطول من ليلة الأمس ؟ لقد عرضت لى فيها هموم ، وحدثتنى فيها نفسى بأمور ، وأخذت أفكر فى هذا الرجل الذى شردنى وتجرد لإيذائى ، فاركب بنا نتنفس فقد كدت أضيق بكل ما حولى . فركبا حتى إذا سارا ميلين وقف الوليد على كثيب ، وأعاد الكلام فى هشام ، وفى الشكوى من هشام ، وبينما هو يعدد أفاعيله ، إذا رجلان على البريد مقبلان ، أحدهما مولى لأبى محمد السفيانى ، والآخر يدعى جردبة ، فلما قربا أتيا الوليد يعدوان حتى دنوا منه ، فسلما عليه بالخلافة ، فدهش الوليد وتملكه ذهول كاد يسقطه على الأرض ، فجعل جردبة يكرر السلام عليه بالخلافة ، وهو مشدوه يفتح فمه ولا يستطيع

الكلام ، ثم جاهد حتى ملك نفسه وقال :

— ويحك أمات هشام ؟

— نعم يا أمير المؤمنين . فصاح الوليد : صدق الله العظيم « حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » . اكتب يا ابن أبي عمرو إلى العباس بن الوليد أن يأتي الرُّصافة ويحصي ما فيها من أموال هشام ، وأن يسجن أولاده وعماله وخدمه ، ثم قال :

طاب يومي ولذ شرب السلافة   إذ أتاني نعيّ من الرصافة
وأتانا البريد ينعي هشاما   وأتانا بخـــاتم للخلافـــة

وأمر من معه بالرحيل إلى دمشق ، ودخل المدينة في موكب حافل وهو فوق فرسه « الرائد » ، وقد لبس خلع الخلافة ، وقبض على عصاها ، ووضع فوق رأسه عمامة بها ياقوتة حمراء بقدر الكف قبّلتها أشعة الشمس ، ثم ارتدت عنها فأرسلت بريقاً وألواناً تتخطف العيون . وحف به ندماؤه وكتابه وعماله وكبار أهل الرأي من بني أمية ، واصطف الناس وتزاحموا على الجانبين ، ورددوا صيحات الفرح والاستبشار بالخليفة الشاب ، ونثر أمامه النثّار الدنانير والدراهم ، فانكب عليها الناس في هرج وشره كما تنقض سباع الطير على فرائسها ، ومشى المغنون وهم ينقرون الدفوف ويعزفون بالطنابير ، وكان أشعب يرقص أمامهم رقصات

عجيبة يتلوى فيها جسمه كما يريد ، كأنه خلا من العظام ، ويرسل النكات سافرة ومحجبة لا يبالى من يقذف بها .

وبلغ الموكب قصر الخلافة ، وجلس الوليد على عرش آبائه بعد أن طال إليه اشتياقه وكاد يدركه اليأس منه ، وتقدم صناديد الأمويين وعظماؤهم يبايعونه ويسلمون عليه بالخلافة ، وبايع الناس جميعاً ، وطارت إليه الرسل من أقصى الأرض بالبيعة والتهنئات ، وجال بخاطره وهو فى هذه النشوة الساحرة ، وذلك العز الشامخ ، بيت من الشعر قالته لسليمان بن عبد الملك إحدى حظاياه :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
غـــير أن لا بقـــاء للإنسان !

فغام وجهه وزاغ بصره ، فهز رأسَه هزًّا عنيفاً ، كأنه يريد أن يطرد عنه طائر التطير ، ثم أمر ابن عبد الأعلى أن يدعو إليه سعيد بن خالد . وقدم عليه فى هذه الأثناء وفد الشعراء وكان فى مقدمتهم يزيد بن ضبة ، وهو شيخ جاوز السبعين ، دخل يتوكأ على عصاه فهنأ الوليد بالخلافة ، وانكب على رجليه يقبلهما ، وكان ابن ضبة فى أول عهده منقطعاً إلى الوليد ، فلما أفضت الخلافة إلى هشام فر من وجهه إلى الطائف ، وحين رآه الوليد فرح به وهش للقائه وأدناه ، وقال لحاشيته :

هذا طريد هشام لصحبته إياى وانقطاعه إلىّ ! هات يا ابن ضبة ما عندك . فأنشده قصيدة منها :

سخا بالذهب الأحـــــمر وزناً بالقناطير

كرم العود والعنـــــصر غمر غير منزور

فطرب الوليد للشعر ، وأمر بأن تعد أبيات القصيدة وأن يعطى بكل بيت ألف درهم ، وكانت خمسين بيتاً . ثم أمر كاتبه عياضاً أن يجرى عطاء دائماً على عجزة أهل الشام من الشيوخ والمرضى والعميان والفقراء المعدمين ، وأن يخص كل واحد منهم بخادم ، وأمره بأن يزيد فى عطاء كل صاحب عطاء عشرة دنانير ، وأن يصل بأعطية أهل الشام إلى ضعف ما كانوا يأخذون .

ثم طلب منه أن يكتب إلى نصر بن سيار عامله على خراسان ، أن يسير إليه مع وجوه أهل خراسان ، وأن يحضر معه برابط وطنابير ودفوفاً وأباريق من ذهب وفضة ، وأن يجمع كل صنّاجة يقـــدر عليها ، وكل باز ، وكل برذون فاره . ثم أطرق قليلا وقال :

وعليك أن تحصر علماء الحديث والقرآن بالشام والمدينة ، ثم تجرى على كل واحد منهم مائتى دينار فى العام .

والتفت إلى ابن سهيل وقال : وأنت يا ابن سهيل مر كبير شرطتى أن يقبض على يزيد بن عنبسة وسليمان بن عبد الملك

وعمر بن الوليد والزهرى وأبناء القعقاع ، وأن يزجّ بهم فى سجن الظلام ، فقد كنت أحن إلى اليوم الذى أشفى فيه نفسى منهم .

وما كاد ينتهى من أوامره حتى وصل سعيد بن خالد فاستأذن فأذن له ، فدخل وهو يرتجف من الخوف ، فقبل يد الوليد وهنأه بالخلافة . فقال الوليد :

— أقبل على يا ابن خالد ، فإن بيننا حساباً عسيراً .

— لقد سعدت الدنيا بك يا أمير المؤمنين وسعد الناس . وهذا يوم صفاء يجب ألا يكدر بذكر الماضى .

— صدقت يا ابن خالد ، ولكنك كنت علىّ إلباً مع هشام ، ولو شئت أن أنتقم لفعلت ، ولكن شفيعاً لا يرد يأتى دونك ودونى ، فيرد عنك يدى ، ويغمد سيفى . كيف سلمى ؟

— هى بخير تقبل يدى أمير المؤمنين وترجو رضاه .

— ترجو رضاى ؟ ولقد لبثت شهوراً بائع ثياب لألتمس منها كلمة رضا ! والآن وقد أصبحت أمير المؤمنين أتقبل أن تزوجنيها ؟

— هى خادمة لأمير المؤمنين ، فوثب الوليد من مجلسه وثبة عصبية ، وصاح فى أصحابه : أعدّوا كل شىء للعروس .

وكان عرساً لم تر له دمشق مثيلا ، تألقت فيه الأنوار ، ومدّت الموائد ، ونثرت الدنانير واللآلئ ، وتواترت فيه الهدايا من كبار

الدولة وعمال الأمصار ، ولم يبق عود ولا طنبور ولا دف فى المدينة إلا أطلق العنان للألحان ، ولم تبق راقصة ولا شادية إلا عرضت من فنونها ما يثير الوجدان ويعجز البيان ، ولعبت نشوة الفرح بالرءوس فسالت الأعطاف وجمد اللسان ، وعرض أشعب ألاعيبه وفنونه بين ابتسامات الشيوخ وضحكات الحسان ، واخترق الوليد الجمع الحاشد وهو يصيح فى غير مبالاة :

أولا تخرج العـــرو　　س فقد طال حبسها ؟!

قد دنا الصبح أو بدا　　وهى لم يُقض لبسها !

وبعد قليل تحققت أمنيته وابتسم له القدر العابس ، وزفت إليه حبيبة قلبه وريحانة حياته ، بعد أن ضرب الدهر بينه وبينها ، وكاد اليأس يقضى عليه وعليها .

وكانت سلمى فى برُد شبابها زينة شبابها ، وزهرة أترابها ، جسم رخص ريان ناصع البياض كأنما صيغ من صافى الدر أو سبيك اللجين ، وقامة مياسة يزيدها العجب حسناً ولدانة ، وصدر ممتلىء رجراج كأنه الزئبق يفر من البنان ، ووجه تأنقت يد القدرة فى تكوينه وتلوينه فجاء صورة للجمال البارع الذى حاول وصفه كل شاعر فندّ عن أوزانه ، وخطر لكل رسام فأبى على ألواحه وألوانه ، جبين يتألق كأنه الصباح الباسم ، وعينان فيهما سحر وفيهما خمر وفيهما كل ما يثير الفتنة ويبعث

بالعقول ، وأنف عربى أموى فيه الشمم وفيه العزة وفيه الجمال ، وفم ياقوتى يبسم عن درر لم تظفر بمثلها صدفات البحار .

جلست سلمى إلى جانب الوليد فتشاكيا البعد ، وتبادلا الوجد ، وشربا من رحيق الحياة أكوابه صافية مترعة ، ومرت بهما ساعات هنيئات أطلق الدهر الغادر لهما فيها العنان ، ومد الحب عليهما الظلال ، فمن عناق إلى عناق ، ومن قبلات إلى أشواق ، ومن ضحك إلى بكاء هو الضحك ، ومن مزاح إلى جد هو المزاح ، حب وملك ونشوة وشباب وجمال فماذا بقى من صنوف النعيم ؟ وماذا تخلف من نضارة الحياة ؟ حقاً إن السعادة لو طمعت فى أكثر من هذا لكانت بطرة ملولا !

ومضى سبعة أيام والعاشقان يتساقيان كؤوس الحب ، ويترشفان رضاب الغرام ، وترك الوليد شؤون الدولة تسير كما تريد أن تسير ، أو تقف كما تريد أن تقف ، وانفرد بحبيبته فى ناحية من قصره كما ينفرد طائران فى وكن ، وجعل بينه وبين صخب الحياة وضجيجها وآلامها ودسائسها حجاباً مستوراً . لم يخطر بباله تألب العلويين ، ولا مؤامرات العباسيين ، ولا تذمر الأمويين ، ولا تلك الثورات التى أخذت تشتعل فى أطراف الدولة . الدنيا عنده سلمى ، والحياة سلمى ، وكل جميل فى هذا الوجود ليس إلا سلمى . وطالما كان يقول ، وطالما كان يردد !

أنا فى يمنى يديهـا وهى فى يسرى يديّـه
إن هـذا لقضاء ليس عدلا يا أخيّه
ليت من لام محبا فى الهوى لاقى منيّه
فاستراح النـاس منه ميتة غـير سويّه !

بقيا على تلك الحال سبعة أيام ، وجاء اليوم الثامن فكان شديد الحر ، لوّاح الهجير ، متقد أديم الأرض ، مات فيه النسيم العليل ، وبعثت نيران الجحيم ، وصبت الشمس فيه شواظاً على جبل قاسيون فأبى أن يحمله وأشفق منه ، فرمى به إلى المدينة شرراً وحمماً . واغبر الجو فاختفت الأنفاس ، وضاقت الصدور ، ولم تطق سلمى ذلك الحر اللافح ، فأمرت جواريها أن يضعن لها ثلجاً فى الماء ، فلما ذاب فيه قامت لتبترد ، فتسلبت من ثيابها ، وأخذت تصب الماء على جسمها ، وحين شعرت بلذة الماء وبرده والت الصب ثم والته ، كأنها كانت تطفىء لهيباً . ثم لبست غلالة رقيقة من الحرير ، وخرجت إلى أحد مشارف القصر فوقفت به طويلا ، وما كاد يولى النهار حتى شعرت ببرد شديد يسرى فى أوصالها ، ثم أخذتها غشية فسقطت على الأرض لا تحس ولا تبين ، فأسرع إليها الوليد فحملها إلى سريرها ، وأقبلت أمه مذعورة واجفة ، وطفق الجوارى يدلكن جسمها ، وينضحن وجهها بماء الورد لتفيق .

واضطرب الوليد وأخذه البكاء واستولى عليه الهلع ، وجعل يصيح : أين الطبيب ؟ أين الطبيب ؟ اذهبوا إلى فرات بن شحناثا اليهودى . أحضروه على جناح الريح . على جناح البرق . على جناح الشيطان ! حبيبتى ! حبيبتى تموت وأنتم هنا أمامى يا أولاد الإماء !

ولم يمض إلا قليل حتى جاء الطبيب وكانت البرودة التى فى جسم سلمى انقلبت حرارة متأججة ، وأخذ تنفسها يتلاحق ، وصدرها يرتفع وينخفض كأنه كير حداد . ثم اعترتها نوبة هذاء وخلاط ، فجعلت تثب من سريرها وتصيح : دعونى أذهب إلى زوجى ، أنا أعرف أنه بعمان ، لقد حال هشام بينى وبينه ، حبيبى ! أنت لا تصلح بائع ثياب ، إن وجهك يشى بلك ، إن به نبلا موروثاً ، إنه وجه ملك . أثواب وألوان للعذارى الحسان ! دعنى يا أبى من ابن عنبسة ، عم مساء يا أبى ، هاتوا حلى العروس ! مشطوا العروس ! ما هذه البئر ؟ إنها بعيدة الغور مظلمة ، لقد زلقت رجلى ، أدركونى ! أنقذونى ! ثم سقطت على السرير مجهودة لاهثة ، تطلب نفس النسيم فلا تكاد تجده ، وغاصت فى غشية لا قرار لها ، وارتفع بكاء الوليد وبكاء من حوله من الجوارى والخدم ، وأخذ يلطم وجهه كما تفعل النساء إذا حزبهن الحزن ولم يجدن له متنفساً ، ومس

الطبيب المريضة وسأل عما يكون سبباً فى المرض ، ثم اتجه إلى الخليفة مكفهر الوجه حزيناً وقال : إن هذا المرض فى الرئتين يا أمير المؤمنين ، وقد سببه صب الماء البارد ، ثم التعرض للجو فى غلالة رقيقة ، وهو مرض قوى الحملة ، شديد الوطأة ، ولكن الله يشفى ما هو أشد منه وأعضل . وداؤه الدفء والأشربة الساخنة ، ويجب ألا تخاطب المريضة وهى تهذى وإلا اختلط عقلها ، وإذا احتملت مولاتى هذا المرض خمسة عشر يوماً نجت وزالت أسباب الخوف ، وإنى يا أمير المؤمنين مستبشر خيراً ، راج فى وجه الله الكريم ، وسأعد لمولاتى دواء ، وسأتردد فى كل يوم مرات ، مسح الله السوء عن مولاتى ، ولا أحزن قلب أمير المؤمنين !

وانصرف الطبيب ، ومر يوم وثان وثالث والمرض يستشرى ، والآمال تتضاءل ، حتى إذا كان اليوم السابع هدأت المريضة وسكن صدرها من الخفقان ، فاستبشر الوليد وأرسل صيحة فرح دوّت فى جوانب الحجرة ، وكادت تهز الكلة التى ضربت فوق سريرها ، ثم أخذ يداعبها ويدللها ويقول : لقد شفيت يا حبيبتى وزال عنك الضر ، سأذهب بك عند ما يتم شفاؤك إلى لبنان ، إن هواءه يبرئ السقيم ، وماءه من تسنيم ، وتفاحه كفمك مسكىّ النفحات ، سكرى اللثمات ، أتحبين تفاح

لبنان يا سلمى ؟ حدثيني ، أتفضلينه على مشمش دمشق ؟ قولى يا حبيبتى أيهما تفضلين ؟ مالك ساكنة ؟ أواجدة أنت على ؟ لا لا ، إن الوليد لا يغضب ريحانه حياته ، بالله أجيبى يا سلمى !

ولكنها لم ترد عليه ، ولم تجاذبه الحديث ، فرفع الكلة ونظر ، فإذا جثة هامدة ! وإذا الجمال الباهر الذى كان جمالا فى جسم وروح أصبح جمالا فى تمثال . فصرخ وشق ثيابه ، وأخذ يدور فى الحجرة كالمجنون ، ويضرب الجدران برأسه ويصرخ : ماتت سلمى ! ماتت سلمى ! ذهبت حياتى ! طويت آمالى ! غابت شمسى ! جفت زهرتى ! صوحت روضتى ! أدركونى يا عبيد القصر ، خذونى وادفنونى معها ، لا شأن لى بالحياة بعدها ، إن الحياة ليست نفساً يتردد ولكنها أمل ورجاء وحب . وكان أبو رقية يجلس فى ناحية من الحجرة مشدوه العينين ساهماً ، يرتل القرآن ترتيلا . وقدم رجال الدولة وعم البكاء وارتفع العويل وطوى بساط للسرور وفرش بساط للأحزان .

وفى اليوم التالى دفنت سلمى بعد إباء من الوليد وممانعة ، وبعد أن شيعهـــا بأبيات تقطع نياط القلوب ، وتستنزف ماء الشؤون :

ألما تعلما سلمى أقامت مضمّنة من الصحراء لحدا ؟

لعمرك يا وليد لقد أجنوا بهـــا حسباً ومكرمة ومجدا

ووجهاً كان يقصر عن مداه شعاع الشمس ، أهلاأن يفدى

فلم أر ميتاً أبكى لعين وأكثرها جازعاً ، وأجلّ فقدا!

وعكف بعد ذلك الوليد على أحزانه ، ولم يجد تسلية لهمومه إلا أن يصب عذابه على من ناصبوه العداء أيام هشام ، فأحضر سليمان بن هشام من السجن وأمر بأن يضرب أمامه مائة سوط وأن يحلق رأسه ولحيته ثم ينفى إلى عمان ، وطلب يزيد بن عنبسة والزهرى فقيل له إنهما فرّا إلى حيث لا يعلم مكانهما ، فأرسل خلفهما الجنود ليقبضوا عليهما ولو كانا فى أقصى الأرض ، ثم أمر بأن يدفع بنو القعقاع إلى عامل قِنّسرين ليذيقهم مرّ العذاب إلى أن يموتوا ، ودعا عياضاً كاتبه وطلب منه أن يكتب إلى يوسف بن عمرو والى العراق بقتل خالد بن عبد الله القَسرى ، وهكذا كان يقضى الوليد نهاره فى تعذيب وانتقام ، وليله فى تطريب وأنغام !

واجتمع أهل الدعوة بخراسان عند ما وصلت إليهم أنباء الوليد وأحاديث لهوه وظلمه ، ورأوا أن دولة الأمويين تخطو حثيثاً إلى الزوال ، وأن من الحكمة أن ينتظروا بإظهار دعوتهم

قليلا حتّى تجفّ الثمرة فتسقط وحدها ، لأن عبث بنى أمية وحده سيزيد فى كراهية الناس وانصرافهم عنهم ، وبذلك يسهل ثل عرشهم ومحو سلطانهم ، واستبشر الدعاة بالوليد خيراً فزادت قوتهم وتجددت آمالهم ، وظهرت منهم بوادر رآها نصر ابن سيار عامل خراسان فتوجس الشر ، وأحس بسوء المصير ، وكتب إلى الوليد :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام !
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام !
فقلت من التعجب : ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيـــام ؟ !

فلما قرأ الوليد كتاب نصر كتب فى أسفله :

بل نيام يا ابن البلهاء ! لقد أقطعك أمير المؤمنين خراسان هبة فاعمل بها ما شئت ، فإنه مشغول عنك وعن خراسانك !

قتل ودمار

ومرت شهور والوليد يشفى نفسه فى كل يوم بانتقام جديد حتّى خافته خاصة الناس وسئمته عامتهم ، ولقد فرح الناس لتوليته أول الأمر لما أغدق من العطايا والنعم ، ولما بذل من المواهب واصطناع

المعروف ، بعد أن عانوا أيام هشام عهداً شحيحاً يحاسب فيه الخليفة على الدانق ، ولا يثيب إلا على عمل . ولكن الوليد لم يستطع أن يمد يده بالعطاء فى كل حين ، ولم يكن له من الخلال ما يحمل الناس على حبه وإجلاله ، فتحولت عنه قلوبهم ونالت منه ألسنتهم . ولكل دولة فى أول عهودها بهجة وإشراق ، يستقبلها الناس فرحين مستبشرين ، وهى تستقبل الناس بالوعود وبذل الرغائب ، فإذا ذهبت جدتها ولم تواصل إحسانها انصرفوا عنها ساخطين شاكين وهم يتحسرون على العهد القديم ، ويتطلعون إلى فجر يوم جديد .

واجتوى الوليد دمشق واجتوته ، وكره لقاء الناس وضجروا به ، فرحل إلى « الأغدف » بعمان وسار فى ركابه كثير من خدمه وندمائه . وكان الوليد خلقاً عجيباً فقد كانت له نفس واحدة استطاعت أن تتقسم أنفساً ، فكانت له نفس باكية حزينة ، ونفس مرحة ضحوك ، ونفس تقية خيرة ، ونفس عارمة صاخبة ، وكانت كل نفس من هذه الأنفس تظهر فجأة على غير إدارة من صاحبها ، وتطالع الناس متناوبة متعاقبة كما تدور كرة حول محور ، فكثيراً ما اتصل منه الضحك بالبكاء ، والخير بالشر ، والقوة بالضعف ، وكان الناس لذلك منه دائماً

فى وجل وخوف ، لا يدرون ماذا تكون اللحظة التالية للحظة الحاضرة .

ذهب إلى الأغدف وأعاد فيه مجالس أنسه ومجالى صبوته ، وكأنه لم يعشق مرّة سلمى ، ولم ينكب بموت سلمى ، ولكن خيالها كان يطوف بنفسه فى لحظات متقطعة فيبكى بين رنين المزاهر ودقات الصنوج . وتنفست دمشق الصعداء لفراقه ، ومد فيها الساخطون رءوسهم إلى الفتنة ، وعاد إليها كثير من الفارين كأبن عنبسة وبعض بنى القعقاع وزعماء اليمنية . وفى ذات صباح التقى جمع منهم بدار شبيب بن أبى مالك فتذاكروا فى شأن الوليد ، وأنه إذا امتد عهده لم يبق منهم أحداً ، ولم يترك لمجد الخلافة أثراً ، واستقر رأيهم على مبايعة يزيد بن الوليد لأنه كان يظهر التقوى والورع ويتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فذهبوا إليه وكان بالرصافة فحدثوه بأمرهم ، وألقوا إليه بسرهم ، فأخذته الدهشة وتذكر سطوة الوليد وبطشه فطلب منهم أن يمهلوه حتى يستشير عمرو بن يزيد ، ثم تركهم وذهب إلى عمرو فى داره وأطلعه على ما اعتزم عليه القوم فوقف عمرو وقد كان جالساً وقال :

هذا يا ابن العم أمر جسيم لن يفصل فيه إلا أخوك العباس

فإنه صاحب رأى ومعرفة ، أما أنا فرجل كثير الشكوك كثير التقلب ، وليس لمتقلب رأى .

وانطلق يزيد إلى العباس يستشيره ويستهديه ، فما كاد يكشف له عن طرف مما جاء بشأنه حتى وكزه العباس فى صدره ، وصاح فى وجهه غاضباً : حقًّا إنك لأشأم سخلة فى بنى مروان . والله لولا ما أخافه عليك من حدة غضب الوليد لشددت وثاقك وحملتك إليه ، إن دولة بنى أمية تهتز للسقوط فبالله عليك لا تضرب فيها بمعول جديد ! وإن بها من نيران الفتن ما تعدّ جهنم إزاءه جذوة خامدة ، فدعها أيها الغرّ ولا تزدها نكالا ! دعها بالله وانصرف إلى شأنك . أتدرى معنى خلع خليفة من بنى مروان ؟ إن معناه أيها الأبله ضياع الدولة كلها ، إذهب يا عدوّ عشيرته ولا تثر جُرحاً لا يريد أن يندمل ، وإذا حدّثتك نفسك بشىء مما فى نفسك فاعلم أنه هو الشيطان الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، وأن غراب الفتنة هو الذى يدفع الأشقياء إلى أن يخرّبوا بيوتهم بأيديهم :

إنى أعيذكمُ بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

وخرج يزيد من لدن العباس حزيناً متردّداً ، ولكن

الرغبة فى الملك أغرته بنبذ وصايا أخيه فنفض عنه ما كان قد أصابه من يأس ، وطرح ما كان مسّه من خوف ، والتقى بجماعات الساخطين وكان بينهم يزيد بن عنبسة فبايعوه سرًّا ، ولما اجتمع له أمره قصد إلى دمشق متنكراً فى سبعة من أنصاره . فنزل على المِزّة وهى من أرباض دمشق ، وقصد قُدُماً إلى دار معاوية بن مصاد زعيم قومه فبايعه وبايعه كثير من أهله ورجاله ، ثم رحل إلى دمشق وعزم على إظهار الدعوة ، فأرسل إلى أصحابه فكمنوا عند باب الفراديس ، ودخلوا المسجد الجامع لصلاة العشاء ، فلما أتموا المكتوبة قبضوا على من بالمسجد من الحراس وكبلوهم ، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأخبره الخبر ثم قال : قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعونه ! فاتجه يزيد إلى السماء وهو يقول : اللهم إن كان هذا لك رضاً فأعنّى عليه وسددنى له ، وإن كان غير ذلك فاصرفه عنى ! وانطلق مع ابن عنبسة فى دروب دمشق ، وكلما سارا خطوات انضم إليهما أعوان وأنصار ، وما جاء اليوم الثانى حتى توافدت على يزيد الكتائب يقودها مشايخها ، وهى تتحرق للقتال وترجو ما وراءه من غنائم .

وطار أحد عبيد الوليد على جواد يسابق الريح إلى سيده ،

فلما بلغ الأغدف رآه بين ندماثه وعمر الوادى ينشدهم :

أدر الكأس يمينا لا تدرها باليسار
اسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوها منذ دهر فى جرار

وما كاد يلقى إليه الخبر حتى ثار وقذف بالحمم : وأمر بضربه مائة سوط ثم بحبسه .

وكان بمجلس الوليد يزيد بن خالد ، وعبد الله بن سعيد ، والأبرش الكلبي . فقال ابن خالد :

— إنى أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل حمص فإنها حصينة ، وأن توجه منها الجنود إلى يزيد حتى يظهرك الله عليه . وقال ابن سعيد :

— لا ينبغى للخليفة أن يرتحل بجنوده ويدع نساءه فى أيدى أعدائه ، والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره . فابتدره ابن خالد قائلا :

— وماذا يخاف أمير المؤمنين على نسائه ، وقائد جيش عدوه هو ابن عمهن عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ؟ فصاح الوليد فى غضب وسآمة : لن أرحل ولن أترك أهلى ونسائى .

وأشار عليه الأبرش أن ينزل بحصن البخراء وأن يقاتل أعداءه حوله ، فأخذ الوليد برأيه ، وانتقل إليه . أما دعاة يزيد فانطلقوا ينادون فى الناس : من سار للقتال مع يزيد فله ألفان ! فهرع إليه كثير من مرتزقة المحاربين .

ثم علم عبد العزيز بن الحجاج قائد جيش يزيد أن العباس ابن الوليد قادم لمناصرة الوليد بطائفة من أهله ورجاله ، فسقط فى يده ، وأيقن أن شيئاً من ذلك لو تم لتفرّق عنه رجاله لشدة ثقتهم بالعباس ، وحبهم إياه واعتقادهم أن الفئة التى يظاهرها هى الفئة الغالبة ، لذلك أسرع فبعث منصور بن جمهور على رأس فرقة من الجند لتحول بين العباس والوصول إلى الوليد .

وسار منصور وهدّد العباس وساقه مع من معه إلى مخيم ابن الحجاج ، فلما وصل إليه أمره ابن الحجاج أن يبايع لأخيه يزيد فبايع مكرهاً مغلوباً ، ونصب ابن الحجاج راية العباس ، وأمر منادياً أن ينادى فى الناس : هذه راية العباس وقد بايع لأمير المؤمنين يزيد . وما كاد أصحاب الوليد يسمعون هذا النداء حتى تفرّقوا عنه وانضموا إلى جيوش أعدائه .

ولكن الوليد كان شجاعاً مقداماً بعروبته وطبعه الموروث ، فلم يأبه لانصراف أصحابه عنه ، واعتزم أن يلقى القوم بنفسه .

ففى أحد أيام جمادى الأولى من سنة ست وعشرين ومائة ركب فرسه « السندى » وقذف بنفسه فى حومة الحرب فقاتل قتالا شديداً ، ولكن القوم تزاحموا عليه حتى كادت تنوشه سيوفهم . فدخل الحصن وأغلق الباب دونه ثم أخذ المصحف وجلس يرتل آيات القرآن الكريم ، وانتحى أبو رقية ناحية من الحجرة وأخذ يفتح عينيه ويغمضهما كأنه كان يصلى بايماء العينين .

ووثب يزيد بن عنبسة نحو الباب وصاح قائلا : كلمنى يا وليد ، فلقد كنت تبحث عنى فى كل مكان ، وها أنذا قد أتيت إليك طائعاً ، ولكنى أظنك لا تودّ اليوم لقائى . لقد حاربتنى فى سلمى أيها الرجل فانتصر الموت علينا جميعاً واستأثر بها ، واليوم تلقى جزاءك بما قدمت ! لا تخف يا أبا العباس فإنى لن ألقاك ولكن سيفى هو الذى سيلقاك . فقال الوليد : لم تقتلوننى لا أبا لكم ؟ ألم أزد فى أعطيات أصحاب العطاء ؟ ألم أرفع المؤن عن كثير من الناس ؟ ألم أعط الفقراء ؟ ألم أعطف على الزمنى ؟ فصاح ابن عنبسة : إنا نقتلك لننقذ الخلافة من يديك . فغضب الوليد وقال : حسبك يا ابن عنبسة ، إن الخلافة أكرم على الله من أن ينقذها مثلك . ثم عاد إلى التلاوة وهو يردد : يوم كيوم عثمان ! فسخر منه ابن عنبسة وجبهه بمقذع السباب

وغليظ القول ، ثم وثب فوق الحائط وانطلق وراءه نفر من أصحابه ، ولما قرب من الوليد قبض على يده وكان يريد أن يأسره ويذهب به إلى القوم ليفصلوا فى أمره ، ولكن رجلا عاجله بضربة من سيفه فخر صريعاً مضرجاً بدمائه ، وتقدم ثان فاحتز رأسه ، وأشرع روح بن مقبل فحمل الرأس وطار إلى يزيد فرحاً بما يحمل . فلما وصل إلى خيمته قذف أمامه به وهو يقول : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد وأسر من كان معه ، هذا نصر مبين مؤزر ! فسجد يزيد شكراً ، ثم التفت إليه باكياً وقال : كنت أرضى منكم بدون هذا ، أما القتل فبلاء عظيم !

ودخل ابن عنبسة فاخذ بيد يزيد وقال : قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله لك وإتمام نعمته عليك . فارتعد يزيد وقال : ويلى إذا لم يغفر الله لى ! قل لى بالله يا ابن عنبسة ، ماذا قال لكم الوليد قبل قتله ؟ فأجاب ابن عنبسة : لقد كان يقول : أما فيكم ذو حسب فأكلمه ؟ أليس منكم رجل رشيد يستمع لما أقول ؟ ولكنا أوسعناه تقريعاً وتواثبنا عليه فروّينا أديم الأرض بدمائه . فصاح يزيد : كفاك يا ابن عنبسة كفاك ! لقد لعمرى أكثرت وأغرقت ، أما والله لا يرتق بعدها لكم فتق ، ولا يلم

شعث ، ولا تجتمع كلمة ! إن الرءوس التى حصدها الحجاج ابن يوسف بعد أن أينعت وحان قطافها ستثأر اليوم لنفسها ! لقد حق القول على بنى آمية وانهار بناؤها ، وخربت — كما يقول العباس — بيوتها بأيديها ! وإنما أنا والوليد رجلان المنتصر منهما المهزوم ، والقاتل منهما المقتول !

يصاولنى والسيف بينى وبينه وأقتله عمداً ، وفى قتله قتلى !

تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة والشباب

مجموعة (مشاهير العرب)

كم فى العرب من مشاهير دلوا على العبقرية والنبوغ فى مختلف مراحل الحياة ، فهناك السياسى الداهية والقائد المغوار والخليفة العظيم ، وهناك الوزير المحنك والعالم الجهبذ والأديب الحصيف إلى غير هؤلاء وأولئك من رجال كانوا على أعظم جانب من ملكات العقل والقلب والنفس فتركوا بعدهم مأثرات وسيراً خلدت ذكرهم إلى الأبد .

● صدر منها :

١ — النعمان بن المنذر

٢ — موسى بن نصير

٣ — أبو العباس السفاح

٤ — الحجاج بن يوسف

٥ — عمرو بن الع

٦ — سعد بن أبى و

٧ — عمر بن الخ

٨ — أبو مسلم الخ

٩ — خالد بن الوليد

ثمن النسخة من كل كتاب ١٣ قرشاً

خذ المعارف من دار المعا